(٥)
بلـــد علـــى كيفـــك*

هنا يا سيدى بلد ظريف لطيـف يعيـش النـاس فيـه كمـا يشـاءون. كـل إنسان يعيش على كيفه، ويتصـرف علـى مزاجـه.. حقًا إن هنـاك قوانـين ولوائح وتعليمات، ولكن هذه القوانين لم توضع لتقلق راحتنـا أو تقلـل مـن مزاجنا، وهل نحن مجانين حتى نصدق ما يقال من أن القانون فوق الناس؟ إن عين العقل هو أن يكون الناس فوق القانون.

لأن القانون يوضع لراحتنا وكيفنـا، فـإذا تعـارض مـع المـزاج أو الكيـف فلا لزوم لتطبيقه، ولهذا فنحن عندما نضع قانونًا لا ننسى قط أن نفتح فيـه أبوابًا ونوافذ خلفية ليدخل ويخرج منها من يريد على كيفه، ومـن يـوم أن خلق الله الخلق ونحن نضـع قوانـين ونعدلهـا بقوانـين أخـرى. فـإن وضـع القوانين عندنا فن ومخالفة القانون مزاج وكيف.

هذا يا أخى بلد القوانين ومصنع اللوائح والتعليمات. فعندنا لكـل شـىء قانون بل قوانين، ولكل خطوة يخطوها الإنسـان هنـا قـانون قديـم وقـانون جديد وقانون معدل، فنحن لا نكف قـط عـن صنـع القوانـين لأنـها هوايـة جميلة نبغنا فيها، وخلال السـنوات القلائـل التـى مضت وضعنـا – علـى ما أذكر – ثلاثة قوانين ضرائب أو أربعة، ولو بحثت لوجدتهم الآن يعـدون قانون الضرائب الخامس.

وهكذا يا عزيزى حتـى أصبحـت القوانـين عندنـا تسـد عـين الشـمس، وأصبح المواطن منا لا يسير قط إلا بين سياجات القوانـين، كأنـه فـى بيـت جحا: يخرج من حارة ليدخل فى دهليز، ولا يدرى لكثرة مـا يلـف ويـدور من أين دخل أو من أين يخرج..

ومع ذلك، فلا عليك يا أخى من تلك السدود والقيود كلها، فـهذا البلـد على رغمنا جميعا بلد طيب متسامح كريم، إنه بلد علـى كيفـك، تسـتطيع أن تعيش فيه كما تريد، وتفعل ما تشاء، لأننا أيضًا ناس على كيفك.

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٧ يناير ١٩٨٢م .

فعندنا مثلاً تلال من قوانين المبانى والمنشآت، وكل شىء فيها موضح بتفصيل لا تتسرب منه نقطة ماء، وكل مخالفة يعقابها: بالغرامة أو بالحبس أو بأخفهما على نفسك وجيبك.

ولكنك يا أخى تستطيع أن تبنى ما نشاء وكيف تشاء وحيث تشاء، بترخيص أو بغير ترخيص، فى ملكك أو فى ملك غيرك.

تستطيع أن تأخذ ترخيصًا بأربعة أدوار وتبنى عشرة، كل ما نستطيعه حيالك لأننا ناس لطاف على كيفك.. هو أن نطالبك بغرامة متواضعة رحيمة، ثم ندعك مع أدوارك العشرة سعيدًا..

وإذا أردت أن تبنى فى ملك غيرك فلا مانع عندنا من ذلك، فما دامت الأرض خالية فأنت تستطيع أن تبنى فيها. فإن كانت الأرض أرض حكومة أى أملاكا أميرية فتفضل وابن كما تريد، فإن أملاك الحكومة كلأ مباح، خزانة بلا باب، بوابة بلا بواب.

تستطيع أن تبنى فيها ما تشاء ولا حرج عليك، وإلى أن تتنبه الحكومة إلى أن شيئًا من أرضها قد ضاع يكون البيت قد هرم وشاخ، لأن الأملاك الأميرية – بينى وبينك – غير مسجلة ولا مسورة ولا محددة على خرائط، ثم إن هناك ألوفا بعد ألوف قد سبقوك واعتدوا عليها وبنوا فيها، والحكومة معهم فى قضايا بلا بداية ولا نهاية، وإلى أن تجىء دورك فى الحساب يكون الله قد عدلها بقدرته، وكن واثقًا أن الأجل المحتوم سيوافيك – بعد عمر طويل – والأرض وما عليها فى ملكك، وسيرثها عنك أولادك. وسيورثها أولادك لأحفادك، وألف مبروك.

وإذا كانت الأرض مملوكة لغير الحكومة فلا ضير عليك ولا يهمك، فإن غاية ما يستطيعه حيالك صاحب الأرض هو أن يرفع عليك قضية، فإذا فعلها ورفع عليك قضية فأبشر فقد جاءك الفرج، فإن القضايا عندنا لا يصدر فيها الحكم إلا بعد خمس سنوات أو عشر، وفى أثناء ذلك أمامك

ألف طريقة تلف بها حول القانون وتدور، وإذا كان محاميك خبير محاكم واستشكالات ومعارضات وحيل وألاعيب فنم مطمئنا وثق أن القضية لن تنتهى قد، ومن الابتدائى إلى الاستئناف إلى النقض يكون خصمك قد انتقل إلى رحمة الله، وتسقط القضية، ويكون على ورثته أن يرفعوا قضية جديدة.

وتستطيع يأخى أن تكون صاحب متجر دون أن تؤجر دكانا.

يمكنك أن تأخذ أى مساحة من الرصيف، وتضع عليها بضاعتك وتشترى وتبيع دون حرج، بل يمكنك أن تضع دواليب ورفوفا وتدقها فى الحائط دقا، وسيجيئك الشاويش فلا تخف، فإن الشاويش رجل طيب ولا يحب خراب البيوت، وأنت تستطيع دائمًا أن تتفاهم معه تفاهمًا صحيحًا بل مشروعًا، فما دمت تستطيع أن تثبت أن لك على هذا الرصيف سنوات وسنوات، وأنك رجل صاحب عيال ومسئوليات، فثق أننا سننظر فى حالتك بعين الرفق والرحمة لأن هذا يا سيدى بلد على كيفك.

وإذا اعترضتك مشاكل أو مصاعب فعندك مئات من أصحاب هذه المتاجر بلا دكاكين، تستطيع أن تسألهم كيف يتصرفون، وعندك مثلاً فى شارع محمد عز العرب ثلاثة تجار فواكه وخضر فى صف واحد، يحتلون من الرصيف ما لا يقل عن عشرين مترا، وهم هناك من سنوات بالعربات والأقفاص والموازين، وواحد منهم قد وضع ميزانًا أوروبيًا ذا أرقام أفرنجية ومؤشر، إمعانا منه فى السخرية من القانون.

وهؤلاء التجار الثلاثة يبيعون أضعاف ما يبيع أصحاب الدكاكين، وهم مع ذلك لا يدفعون مليما ضريبة، لأنهم تجار بدون دكاكين وبدون سجلات، فلا وجود لهم فى السجل التجارى. أى أن التاجر القرصان عندنا أكثر أمنا وأوسع ربحًا من التاجر المنتظم الذى يعمل فى حدود القانون، وهو مع ذلك بعيد عن رجال الضرائب ومطالبهم، هل هناك أغرب من ذلك؟

بلد على كيفيك..
وناس على كيفك..

□□□

تريد أن تدفع الضرائب؟.. إذن فادفعها، وليبارك الله لك فى مالك..
لا تريد أن تدفعها؟..
وماله؟ أنت حر وعلى كيفك؟..
ستكون فى هذا شبيها بسبعين فى المائة من المصريين الذين لا يدفعون الضرائب.

وهذا ليس كلامًا من عندى، بل أذكر أن أحد وزراء المالية عندنا، ولا أدرى من منهم، فهم كثير، فكل سنتين - بالكتير قوى - عندنا وزير مالية جديد يقول إنه أعظم من ايرهارد، أقول إن واحدًا منهم نشر تصريحًا فى الصحف يقول إن الحكومة لا تحصل إلا ٢٠ فى المائة من الضرائب المستحقة على الناس، فأنت إذا توقفت عن دفع الضرائب المستحقة عليك فإنك لا تفعل أكثر من أنك تنضم إلى جيش العصاة الذين يرفضون القيام بواجبهم حيال وطنهم.

ذلك أنه لا عقوبة عندنا على إخفاء بعض موارد رزقك، واستمارة الدخل - والمفروض أنها وثيقة رسمية شديدة الخطورة - يمكن أن تكذب فيها كما تشاء، ولو كنا فى بلد آخر فان ذلك الكذب يعتبر تزويرًا وتهربًا يعاقب عليه بالعقوبة الشديدة.

ولكننا كما تعلم ناس طيبون، وكل ما يحدث لك إذا قدمت الإقرار المكذوب أن مصلحة الضرائب لن تأخذ بما فيه، وتقدر عليك الضرائب بحسب ما ترى، وهى أيضًا - أى مصلحة الضرائب - لا تراعى الدقة فى التقدير، فقد يكون دخلك فى السنة ألفى جنيه فيفترض رجال الضرائب رقمًا جزافيًا، ويطالبونك بضرائب على أساس أن دخلك خمسة آلاف أو ستة آلاف جنيه، وبين تقديرك المتواضع وتقديرهم المبالغ فيه تضيع الحقيقة وندخل فى محاسبات ومكاتبات، وإنذرات، وينتهى الأمر بعد

سنوات إلى ربط ضريبتك على أساس أن دخلك ٢٥٠٠ جنيه فى السنة، وحلال عليك ما أخفيته عن الدولة..

هذا إذا علمت مصلحة الضرائب بأنك موجود ولك دخل كبير، فهناك مئلك ألوف يعملون بالتجارة أو المقاولات لا تعلم الحكومة من أمرهم شيئا، أو ربما هى تعلم ولكنها تغضى عنهم حياء.

المهم أن تعلم أن مسألة أدائك الضرائب أو عدم أدائها مسألة متروكة لك، وأنت وذوقك، أو أنت وكيفك فأنا أعرف أناسا كثيرين يكسبون كثيرا جدا، ولكنهم لا يدفعون للضرائب شيئا، فكل أولئك التجار الذين ظهروا فى آخر الزمان ودخلوا فى تلك الحرفة العجيبة التى تسمى التصدير والاستيراد لا يدفع الواحد منهم إلا عن جزء طفيف جدا من دخله، لأن أحدا فى الحقيقة لا يعرف على وجه الدقة ماذا يصدرون وماذا يستوردون، وإذا عرفنا أنهم جميعا يستوردون، وإذا عرفنا أنهم جميعا يستوردون الكماليات فإن أحدا لا يعرف ماذا يصدرون، فإن صورة صادراتنا محزنة جدا، وباستثناء القطن الذى تحتكر الدولة تصديره وبعض الخضراوات والفواكه فإننى لا أظن أن أحدا منهم لا يصدر شيئا له قيمة إلا الدولارات، والدولارات ليست على أى حال إنتاجا مصريا، ولكن إخواننا يجمعونها من الأسواق ويبيعونها لأولئك الذين يستوردون دون تحويل عملة، ومع أننا جميعا نعرف أنه لا يوجد شىء يسمى استيرادا بدون تحويل عملة، لأن أى بضاعة تأتى من الخارج لابد أن يحول ثمنها عملة أجنبية بطريقة أو بأخرى، إلا أننا نغمض أعيننا ونمضى فى هذه التجارة العجيبة، ونسمح رسميا لناس بأن يستوردوا دون تحويل عملة، مع أننا نعلم أنهم لابد أن يحولوا عملة لكى يشتروا من الخارج شيئا. وهذه العملة التى تحول هى فى الغالب الجنيه المصرى الغلبان، الذى بهدلوه ومرمطوه وجعلوه «عره» فى وسط عملات البشر.

وما دام الاستيراد يتم بعملة لا نعرف من أمرها شيئا. فكيف تحاسب الدولة أولئك التجار على مكاسبهم؟ إن الدولة لا تعرف كيف حصلوا على

المال الذى اشتروا به البضاعة.. وليست لديها فكرة عن بضاعتهم.. فهذه كيمياء وسيمياء التجارة الحديثة..

وأنت أيضًا يا سيدى تستطيع الدخول فى سوق التصدير والاستيراد وأنت واثق من أن أحدًا لن يحاسب على ضريبة حسابًا جادًا، وكيف يمكن لأحد أن يحاسبك حسابًا جادًا إذا كنت أنت غير جاد ودفاترك غير جادة؟

فكلنا نعرف أن دفاتر هؤلاء التجار كلها زائفة وأن المدون فيها لا يمثل إلا واحدًا فى المائة مما يتاجرون به وفيه، وبهذه الطريقة يحصلون على أرباح لا حصر لها، ولا يؤدون عنه ضريبة، ولهذا فقد كثر أصحاب الملايين منهم، وانطلقوا يعربدون فى الأسواق ويشترون البضائع من سيول أو تايوان أو هونج كونج، ويضعون عليها تكيتان تقول إنها مصنوعة فى باريس أو لندن أو نيويورك!..

حتى النقود لم نعد نسميها بأسمائها، لأن المسألة هنا مسألة كيف أو مواج، فالجنيه يسمى ديكا، والألف يسمى باكو، والمليون يسمى أرنبا، وفى بلد يتعامل الناس فيه بالديوك والباكوات والأرانب كيف يمكن أن تنفذ قانون ضرائب؟ وما نوع الضريبة الذى يمكن تقديره على رجل رأس ماله ١٠ أرانب؟ وكيف تفهم أن الأرانب تشترى عمارات؟..

حقًا.. بلد على كيفك..

وعلى كيفك بلد!..

□□□

وفى كل بلاد الدنيا لا يركب الناس وسيلة من وسائل المواصلات إلا إذا دفعوا أجرًا.. إلا هنا، فتسعون فى المائة ممن يركبون الأوتوبيس والترام لا يدفعون أجرا، وكل واحد وكيفه، إذا شاء دفع متفضلا أو لم يدفع دون أن يجرؤ أحد على أن يدوس له على طرف. وكيف يدفع الناس ثمن التذكرة فى أوتوبيس مغطى بالناس فى كل جوانبه حتى لا تكاد ترأه؟..

وكيف يستطيع الكمسارى أن يحصل الأجر من عشرين إنسان معلقين فى مدخل الأوتوبيس، وإذا ضاق بهم الباب صعدوا إلى السطح وجلسوا فوق الأوتوبيس حيث لا يصل إليهم كمسارى ولا عفريت؟.. ومن أغرب ما رأيت فى حياتى رجل كان جالسًا على سطح الأوتوبيس مبسوطا ٢٤ قيراطا، ثم توقفت الحافلة بسبب الزحام فنزل الراكب اللطيف واشترى بطاطا، ثم عاد فصعد إلى «الروف» وجلس يأكلها وهو سلطان زمانه..

وقد أصبح ركوب القطارات على السطح شيئًا مألوفًا ، حتى أصبحت الحكومة ترعاه وتحمى ركاب «روف» القطار؟.. فقد حدث أن واحدًا من هواة هذا النوع من أنواع الركوب هاجمه لصان فوق القطار وسرقا منه ٥٠ جنيها وساعة، وبدلاً من أن يقول له البوليس: كيف يا سيدى تركب فوق سطح القطار ومعك ٥٠ جنيها؟.. لماذا لم تشتر تذكرة وتجلس فى القطار مع بقية الخلق مادمت تملك المال؟ بدلاً من أن يسألوه فى هذا قرروا إنشاء قوة بوليس لحماية ركاب الروف.

فإذا كان الأمر كذلك فأنت يا أخى تستطيع السفر والانتقال دون أجر. بدلاً من الوقوف فى الصف أمام شباك التذاكر، تستطيع الصعود على سطح القطار والجلوس أو النوم فوق القطار حتى تصل إلى حيث تريد، فتهبط فى رشاقة القرد وتذهب إلى دارك بالسلامة، لأن هذا يا سيدى بلد على كيفك.

□□□

وهل هناك أضبط من أعمال مكتب التنسيق الذى ينظم حركة الدخول إلى الجامعات والمعاهد تنظيمًا هو الدقة بعينها؟.. فإن له استمارات الواحدة منها فى حجم الكراس لكثرة ما تطلب من البيانات، تفحص ويوزع أصحابها على الكليات بحسب مستويات الدرجات، ويقوم بالتوزيع جهاز كومبيوتر مستويات الدرجات، ويقوم بالتوزيع جهاز كومبيوتر عظيم ذو شوارب، يحسب الدرجات حتى نصف الدرجة تحريًا للعدل والدقة والإنصاف..

ومع ذلك فأنت تستطيع أن تغافل الكومبيوتر ذا الشوارب، وتدخل الكلية التى تريد دخولها قانونيا محترمًا.. فإذا كنت تريد أن تدخل ابنك كلية الطب ومجموعه ٦٠ فى المائة أو أقل مثلاً.. فما عليك إلا أن ترسله إلى عمان أو الجزائر أو وهران ليلتحق بكلية الطب هناك، وبعد سنة تطلب تحويله إلى كلية طب جامعة القاهرة، ويستجيبون لطلبك ويستقر ابنك العزيز فى كلية الطب بمجموعه الهزيل.

وإذا كنت لا تصر على كلية الطب أو الهندسة فعندك يا سيدى فرع جامعة القاهرة فى الخرطوم، أرسل ابنك إلى هناك فيدخل الكلية التى يريد، فهناك لا يدققون على المجموع، وبعد شهور اطلب تحويله إلى المعادلة فى جامعة القاهرة، وسيتم لك ذلك بصورة قانونية مائة فى المائة.

ذلك أننا يا أخى ناس لطاف ظراف لا نحب أن نضايق أحدًا أو نحرم أحدًا من شىء يشتهيه، فلكل شىء عندنا أبواب وشبابيك خلفية يدخل منها من لا ينطبق عليه القانون، لأن المهم عندنا هو المزاج وانبساط الناس، لأن هذا أساسًا بلد على كيفك، وناسه أيضًا على كيفك..

وفى كل بلاد الله تجد العلاقة دقيقة بين الراتب أو الأجر والعمل، لا أجر بلا عمل، والأجر والراتب يقدران على قدر العمل.. إلا فى بلدنا العزيز..

هنا يعتبر المرتب شيئًا والعمل شيئًا آخر، ولا علاقة بينهما أصلاً، المرتب يعتبر كأنه حق فى وقف يتناوله صاحبه حالاً بعمل أو بدون عمل. وهذا الحق ينطبق على العلاوات والزيادات والمكافأة فى مواعيدها..

وبعض الموظفين يعتبرون هذا الراتب بدل انتقال من البيت إلى مكان العمل.. ومادمت قد توظفت فقد انتهى العمل وأصبح شيئًا على كيفك: تعمل إذا شئت ولا تعمل إذا شئت ومهما بلغ تقصيرك فإن أحدًا لم يعكر مزاجك بخصم أو عقوبة أو حتى بكلمة عتاب، لأن قلوبنا رحيمة رقيقة، وهى لم تبلغ من القسوة إلى درجة أن تطالب الناس بعمل.

وكل القوانين التى لدينا تشجع الكسل وتثبت عليه، ولكى نخصم مبلغًا صغيرًا من راتب فلابد أن تقف أمام مكتب العمل موقف المتهم، لأن المفروض دائمًا أن رئيس العمل ظالم ومعتد ومتحيز، والموظف دائمًا على حق، وإذا تقاضى الموظف زيادة أو إضافة واستمرت ثلاثة أشهر فقد أصبحت الزيادة حقا لا يمكن انتزاعه، لهذا نجد الموظف يترك عمله الذى يؤجر عليه ليؤدى العمل الخارجى الذى يأتيه بزيادة، لأن راتب الوظيفة مضمون ولا خوف عليه، والهم هو الإضافى، ولهذا فإنك لا تجد غالبية الموظفين فى مكاتبهم، ومهما تبين للدولة من عجز الموظف أو قلة كفايته فهى لا تستطيع حياله شيئًا.

لهذا فأنت يا أخى تستطيع أن تعمل أو لا تعمل، على كيفك لأن راتبك هذا يأتيك من عند الله سبحانه رزقًا حلالاً دون حساب.. وتستطيع أن تلزم بيتك إذا كنت لا تريد أن تكلف خاطرك الذهاب إلى محل العمل، بل أنت تستطيع أن ترفع سماعة التليفون وتقول للقسم الطبى إنك مريض. القانون يقول إن المصلحة ترسل إليك فى هذه الحالة طبيبًا لكى يتحقق من صدق بلاغك، ولكن من أين للحكومة العدد الكافى من الأطباء ليلاحقوا جيش المرضى والمتمارضين؟

وإذا كان الطبيب نفسه متهربًا من عمله بعمل فى مكان آخر فأين من ينفذ القانون؟..

المسألة كما قلت لك مسألة مزاج. وهذا أمر ننفرد به من بين بلاد العالم كما ننفرد بالأهرام وأبو الهول، وقد تفاهمنا فيما بيننا على التهرب من العمل وإهماله حتى أصبح هذان هما القاعدة..

فإذا كان هناك موضوع تصدق فيه عبارة (بلد على كيفيك) فهو موضوع العمل، فقد أبدعنا فيه أى إبداع وتلاشى من نفوسنا الخوف من العقاب، حتى أصبح ذلك العقاب فى ذاته ظلمًا وتعديًا، وكيف نعاقب إنسانًا لأنه لا يعمل كما ينبغى؟ وما دخل العمل فى الراتب؟ وكيف تجيز لنفسك أن تعكر مزاج الناس بشىء تافه يسمى العمل.. هناك وزارة كاملة مهمتها

المحافظة على مزاج الموظفين والعمال وعدم السماح لأحد باتخاذ أى إجراء ضدهم، لأن ذلك الإجراء يعتبر عدوانا على مكاسب العمال، ومن ذا الذى يجرؤ على المساس ب مكاسب العمال؟..

□□□

عندنا يا سيدى كله على كيفك. ونحن نحب المواطن ونعزه إلى درجة أننا لا نسمح لأنفسنا بتعكير مزاجه..

وليس فى الدنيا شىء لا تستطيع عمله هناك إذا أردت.. تريد أن تمر بسيارتك مخترقا النور الأحمر؟ وماله؟

تريد أن تسير فى عكس الاتجاه المقرر فى أى شارع؟ وفيها إيه؟.

تريد أن تنام فى وسط ميدان التحرير؟ طبعا تستطيع..

خذ يا سيدى مرتبتك ولحافك ومخدتك ولا تنس القلة، وإذا كنت حريصا على الاستيقاظ فى وقت معين فخذ المنبه أيضا..

سيجىء الشاويش طبعا ويصيح بك: ما هذا الذى تعمله؟.. قم من هنا..

وهنا ستجد عشرات الناس يقولون للشاويش: يا شاويش الراجل تعبان وهلكان.. وكمان مش عاوزه يستريح؟ إن الميدان عشرة فدادين. ثم يضيق عن رجل مسكين كهذا شقيان وغلبان ويريد أن يستريح.. مش تخلى عندك إنسانية يا شاويش..

أما أنت فلا عليك فاسحب الغطاء على نفسك ونم فى هدوء وكل شاويشية ميدان التحرير لن يستطيعوا أن يدوسوا لك على طرف وكل السيارات الرائحة الغادية ستراعى مزاجك وتدور من حولك كأنك تمثال أو مبنى.

لأن هذا أيها العزيز بلد على كيفك..

«الكيف» هو أهم شيء هنا، وكل ما عداه هباء.. القوانين توضع لتعدل بقوانين أخرى ولكنها لا تطبق قط. إنها تلال كما قلت لك، ولأنها تلال فماذا نطبق منها أولا نطبق؟..

خليها على الله.. وأهي ماشية حتى إذا لم تكن ماشية فماذا سيحصل؟.. لن تخرب الدنيا أو تقوم القيامة، فنحن مبسوطون كده والحمد لله، ولسنا مغفلين مثل أولئك الآخرين الذين ينفقون حياتهم في تطبيق القوانين.. والإنسان خلق في الدنيا ليعيش ويتمتع لا لكي يشقى ويتعب، وأمامنا بلاد الدنيا التي يتعب أهلها وراء الرزق أو يعكرون مزاجهم من أجل قانون.. ماذا كسبوا؟.. وهل يأخذ أحد من الدنيا شيئا؟. هل صاحب المال يأخذه معه في القبر؟.. خليها على الله فهذا بلد على كيفك.. وناس على كيفك..

(٦)

تمثال لمصر*

كلنا ننفق ونأخذ، ومصر وحدها فى النهاية تدفع الحساب.. وكل فاتورة حساب لابد أن يسددها أحد فى نهاية المطاف، وبحسب علمى فإن مصر إلى الآن هى التى تسدد كل الفواتير، والنتيجة؟ الدين المتراكم والمشاكل المتعالية كالجبال، ونحن نقرأ عن الديون ونحسب أنها لا تعنينا..

وسيجىء اليوم الرهيب الذى يعلم كل واحد منا أن عليه أن يساهم فى سداد الدين.

والمواطن يسدد دين وطنه بالعمل والإخلاص والإنتاج .

ونحن والله قادرون على أن نعمل وننتج ونسدد كل الفواتير.

ولكن لابد لنا لهذا من أن نحب مصر أولاً ثم أنفسنا ثانيا..

وسنرى أننا فى هذه الحالة لا نضحى شيئًا بذلك بل نحن نكسب.

وليجعل كل منا فى قلبه تمثالاً لمصر..

فى ميدان التحرير فى القاهرة قاعدة تمثال بدون تمثال، إنها هناك من سنوات كأنها جذع شجرة بلا شجرة.

قيل إن الملك فؤاد أمر بعملها ليوضع عليها تمثال له أمر بصنعه فى إيطاليا، ثم مات دون أن يوضع التمثال.

ثم قيل إن الملك فاروق الغى تمثال أبيه، وأمر بصنع تمثال لنفسه ليقوم فوق القاعدة اليتيمة.

ثم قيل إن جمال عبد الناصر أوعز إلى رجاله بأن يصنعوا تمثالاً له ويهدوه إليه ليوضع فوق القاعدة، ليشرف منها على أمور مصر أثناء حياته وبعد حياته.

---

* نشرت هذه المقالة فى ٤ أبريل ١٩٨٢م .

ثم زعموا أن أنور السادات رشح نفسه ليكون القائم فوق ذلك العمود ليحمى منه مصر إلى يوم يبعثون.

وقيل، وقيل..

ومازالت قاعدة التمثال شاغرة: جسما بلا رأس، وقاعدة لإطلاق صواريخ بدون صواريخ.

وهى فى ذاتها قاعدة تمثال عجيبة، لأن مسطحها الأعلى الذى سيقوم عليه التمثال صغير. وقد قال لى المثال جمال السجينى إن الملك فؤاد أو فاروق – ليس يدرى – فكر فى أن يقوم عليها برجل واحدة.

وأياما كانت الحال فإن هذه القاعدة لابد أن تشغل، لأنها بوضعها الحالى جذع بلا شجرة كما قلت، وهى على هذه الصورة تزيد من بشاعة ميدان التحرير الذى أسأنا إليه مرة بعد أخرى.

ثم أضفنا نحن إليه لمسة الموت، أو ضربة الرحمة (كورد – جراس) بممرات علوية بلا لون أو شكل، تخلو من أبسط عنصر من عناصر التجميل، فهى من الأسمنت الرمادى الكابى المصبوب بلون جدران السجون: السلم والحواجز وكل شىء، وقد أجهزنا نحن عليه وعلى الميدان معا باستعمالنا السيئ فهو لا ينظف أبدًا ، ومهابط سلاله تحتها مواقف سيارات، وجمهورنا الكريم نفسه على عادته لا يستعمل هذه الممرات، ويفضل دائمًا أن يعبر على الطريق وبين السيارات، لأننا شعب يثبت شخصيته بالدخول من باب الخروج، والخروج من باب الدخول، أو هكذا علمناه.

وقد بح صوتى من الكلام فى القاهرة، وإنقاذ القاهرة، والناس يقرءون ما أكتب ولا يحفلون له، وكأنهم يحسبون أننى أكتب مواعظ للأموات أو أقرأ «أحزابًا» أو «أورادًا» ليرقص على وقعها الدراويش.

ولكن هذا لن ينثنى قط عن الكتابة فى مثل هذا الموضوع، لأننى أومن أننى أتحدث عن ناحية من أهم نواحى تربية شعبنا، وهى نواحى التنظيم والفن والجمال، لأن هذا الشعب المسكين لا يهتم أحد بتعليمه شيئا، فهم يتحدثون عن الأمن الغذائى والأمن السياسى وما إلى ذلك، وأنا أعتقد أن الأمن الثقافى والأمن الحضارى لا يقلان أهمية لشعبنا عن الأمن الغذائى، فالإنسان لا يحيا بالخبز وحده كما يقولون، وفى عصرنا هذا تحيا الشعوب بالعلم والحضارة قبل أن تحيا بالخبز واللحم والفول، وبلا علم أو حضارة فلا خبز ولا لحم ولا فول..

وهذه هى الحقائق والأرقام أمامك، فنحن نستورد اليوم سبعين فى المائة من الطعام، ولو كان عندنا ما يكفى من العلم والثقافة والحضارة لصدرنا الطعام بدلاً من أن نستورده.

ولكن هذا موضوع آخر أو تلك مواجع أخرى، والباكى على بلادنا ما أكثر مواجعه ولا نهاية لآلامه وشكاواه.

ونعود إلى قاعدة التمثال؟

اعتقد أن أوفق ما نصنع هو أن نضع عليها تمثالا لمصر، حتى يكون هناك على الأقل شىء واحد جميل وسط ذلك القبح كله.

مصر التى ظلمناها ونظلمها ليل نهار.
مصر التى هى على كل لسان وليس لها فى القلوب مكان
وتلفت حولك لترى مصاديق ما أقول.
فهل هذه مناظر بلد يحبه أهله؟

وأنا هنا أتحدث عن جماهير الناس ولا شأن لى بالدولة، ورجال الدولة، فهؤلاء حكام وناس عظام نادرا ما يحفلون لما نكتب، لأننا كتاب ومصلحون، ولا محل فى رأيهم للكاتب والمعلم فى شئون الحكام والناس العظام.

وأوروبا الجميلة التى تراها لم ينشئها حكام أو ملوك، إنما أنشأها وجملها كتاب ومفكرون وعلماء ومهندسون ومعماريون.

وجان جاك روسو وفولتير وحدهما شادا من بنيان فرنسا أضعاف ما شاد آل هيو كابيه وأنجد واليوربون، والجمهورية الخامسة من ديجول إلى ميتران.

وقد كان عندنا ناس يقولون لنا: لابد أن تتعلموا من الفلاحين الأميين، وتقول: يا مولانا: لقد أنفقت علينا هذه الدولة الكثير لكى ندرس ونتعلم ثم نعلم الفلاحين فكان الرد علينا سخرية بالغة فقد سمانا أفنديات.

وفى ظل مثل هذا التفكير تعثرت المسيرة الحضارية، كادت تتوقف، ونشط الأمن الغذائى حتى كاد قرص الطعمية يكون أغلى من الكتاب.

وفى ثمانية أشهر زاد عددنا مليون إنسان.

لأنه كان هناك من يقول للناس: نحن نطعمكم ونكسوكم أنتم وأولادكم فلا عليكم، ولن نطمئن حتى يكون لكل منكم سكن ودار.

فإذا كان الأمر هكذا، فلماذا يحمل الناس هم الخلفة والأولاد؟ إذا كان هناك من سيطعم كل طفل دون حساب فلماذا يهتم الناس بالأقراص أو يفكرون فى تنظيم الأسرة أو تحديد النسل؟.

لأن الناس عندنا أو أكثرهم على الأقل تجرى مصر على لسانهم فى كل حين، وليس لها فى القلب أى مكان. هكذا علمناهم، فقد زعمنا فى صراع السياسة أننا قادرون على أن نحل لهم كل مشكلة فلماذا يفكرون؟.

ومادام هذا الشعب يحرم ممن يعلمه أو يربيه، فمن والله يعلمه أو يربيه؟ ومن يقول للناس إن القذارة عيب، والفوضى عيب والتسول عيب، والبلطجة عيب، والفهلوة رأس العيوب؟.

وأعود إلى التمثال وقاعدة التمثال.

إن الذى يربى هذا الشعب، أو ينبغى أن يربيه هو مصر، أقصد الحب لمصر لأن الذى يحب مصر لا يقدم على شىء يضر مصر.

أنت تعرف أن رخاء مصر كلها ووجودها كله يرجع الفضل فيه إلى الفلاح البسيط المتواضع الذى كان يصحو من الفجر ليروى الأرض ويحرث ويبذر، وقدماه فى الطين فى الشتاء والصيف، وبينما أنت وأنا نائمان، كان هناك فلاحون ساهرون يحرسون هذه الأرض ويعملون لاستخراج كنوزها وهم مع ذلك كانوا يأخذون من هذه الكنوز اقل جزء منها ويعطونا نحن الباقى لأن أولئك الفلاحين كانوا يحبون أرض مصر.

وأنا أتحدث هناك عن الفلاحين الطيبين المخلصين الذين كانوا يعملون فى جد وإخلاص كما كان أجدادهم يعملون، ولا أتحدث قط عن بعض فلاحى اليوم الذين يتظاهرون بالعمل ويتذاكون على الناس، ويفتحون الماء على الأرض وينامون حتى تغرق الأرض و «تطبل» فلا يخرج منها محصول، هؤلاء هم الفلاحون الجدد الذى يحبون أنفسهم أكثر مما يحبون مصر، ومما يؤلم النفس حقًا هو أن هذا الطراز الجديد من الفلاحين الذين لا يحبون مصر ويفسدون الأرض هم صنعة أيدينا، نحن الذين لا نحب مصر كما ينبغى أن تحب مصر، نحن الذين شغلتنا أنفسنا عن حب بلادنا.

نحن الذين نتعلم لنهجر قرانا، ونتركها تنعى من بناها..

وانظر إلى قرآنا تحسب أنها بلاد مرت عليها جيوش تنهب وتسرق وتحرق.

وامال نفسك.

لماذا تزهر القرى فى غير بلادنا وتمر عليها فترأها قطعًا من الفن الجميل، والحقول من حولها كأنها رياض، والمحصول وافر وممتاز.. والأبقار ترعى فيها نظيفة جميلة كأنها مواطنات صالحات.

وهل تصدق يا أخى أن الدانمارك تصنع وحدها نصف الزبد الذى يستهلك فى البلاد العربية كلها.

واسأل نفسك مرة أخرى: كيف ظهر هذا النوع المتاز من الأبقار فى الدانمارك.

والجواب: لأن هناك من يربيها ويرعاها.

ولماذا هناك من يربيها ويرعاها؟

لأن أهل القرى فى الدانمارك وهولندا وفرنسا وألمانيا لا يتعلمون لكى يهربوا من قراهم إلى المدن تاركين القرى من ورائهم للعجزة والأطفال.

واسألنى أنا فقد عشت فى قرى سويسرا مع الفلاحين وعملت معهم فى الأرض ورعاية البقر، وفى ليلة من ليالى الصيف لا أنسى أننى جلست خارج إسطبل البقر مع أبناء الهركروزلى الفلاح بينما كان ابنه الطبيب البيطرى بيتر يساعد بقرة تعسرت فى الولادة.

البقرى اسمها «روزا» وربة البيت اسمها روز مارى.

وصدقنى أننى أحيانا كنت لا أعرف الفرق بين روزا وروز مارى.

فى تلك الأسرة تعلم اثنان من أبناء الرجل الفلاحة والبيطرة وظلا فى القرية يعملان فى الضيعة، وكانت هناك بنت تخرجت من معهد المساعدات الطبيات وعادت لتعمل فى مستشفى القرية، وواحد فقط هو الزائد على الحاجة هاجر إلى أمريكا، وتلك الأسرة التى عشت فيها وعملت معها كانت تعيش ومازالت تعيش فى هايلجن شوندى قرب بلدة جيل على ضفاف بحيرة من أجمل بحيرات الدنيا.

وفى العام الماضى كنت فى الفيوم ووقفت بعيدًا عن بحيرة قارون.

لم أستطع الاقتراب منها لأن الأرض بينى وبينها كانت مالحة معطنة كلها بعوض.

لو كنت معى لسالت دموعك كما سالت دموعى.

لأننى أحسست أننا لا نحب مصر.

ولو أحببناها لخدمنا كل شبر فيها.. لكانت بحيرة قارون منتجعًا سياحيًا عالميًا بدلا من أن تكون مستوطنة للبعوض.

والأبناء الذين ولدوا فى القرى المحيطة ببحيرة قارون أسرع بهم آباؤهم إلى المدارس ومنها إلى الجامعات، وهؤلاء جميعا مع ألوف وألوف غيرهم يتكدسون اليوم فى القاهرة ومعهم وريقات يسمونها شهادات جامعية، وهم يطالبون المسئولون بأن يوجدوا لهم وظائف ومساكن.

ومساكنهم هنا فى القرى يسكنها البعوض.

وهم تعساء لأن الوظائف التى يحصلون عليها لن تأتيهم إلا بالعيش الحاف، وهم لن يحصلوا على المسكن الموعود، لأنه ليس من المعقول أن نبنى لكل شاب يولد على أرض مصر شقة يسكنها فى القاهرة.

ونحن الكبار مسئولون معهم.

لأننا لم نكن نرسم سياستنا على أساس رخاء مصر وسعادة مصر، بل رسمناها على نحو يخدم مصالح الأفراد حينا والسياسة حينا آخر، ولا حساب فى هذه السياسة لمصر فى أى حين.

لهذا فأنا أريد تمثالاً لمصر فى ميدان التحرير وفى كل ميدان تحرير.

وهل هناك ميادين للحرية والحق غير القلوب؟

وانظر يا أخى إلى قلوبنا. هل هى إلا أحجار.

ولو مستها لمسة من حب مصر لكانت جنانا تجرى فيها الأنهار..

□□□

والشباب كان على أيامنا لا يتلقى وعودًا قط. كان يتعلم ثم يخرج إلى الدنيا ليشق طريقه فى الحياة. وصدقونى أن واحدًا منا لم يمت من الجوع.

قيل لنا: ليست لدينا وظائف فمضينا نبحث عن الأعمال، ومن أول السلم بدأنا، ومضينا نصعد خطوة خطوة.

وأنا أعلم أنه جدت منذ حين فى الدنيا كلها آراء ونظريات جديدة عن واجبات الدولة حيال المواطنين وهى آراء اشتراكية فيها خير كثير إذا طبقها ناس يفهمونها ويراعون الله والوطن عند التطبيق.

وهذه النظم الاشتراكية تطبق على أحسن وجه فى البلاد التى نسميها رأسمالية ولكنها تطبق على أسوأ وجه فى البلاد النامية ومعظمها تزعم أنها اشتراكية.

ففى البلاد الرأسمالية نجد الضمانات والتأمينات الاجتماعية ومعاونة الشباب على الحصول على العمل المناسب وتأمين الشيوخ وما إلى ذلك، كل هذا نجده مطبقًا فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وسويسرا على وجه مشكور، ولكنه فى البلاد النامية والشيوعية وسيلة لإذلال المواطنين، واقرأ الصفحات الأليمة التى كتبها سولسيننسن فى «عنبر السرطان» لترى كيف يأخذون طبيبًا وامرأته ويرمون بهما فى مجاهل سيبريا دون أدنى رعاية عقابا لهما على جريمة لم يرتكباها، وبودى كذلك لو قرأت كتبه المتعة: جولاج ١ وجولاج ٢ وجولاج ٣.

ولكننا نحن نطبق هذه النظريات بأسلوبنا العجيب، فبدلاً من أن نعلم الشاب شيئًا ينفعه ويعينه على كسب رزقه فعلا ندخله جامعة لا أساتذة فيها ولامكتبات ولا معامل كافية، ويقضى الشاب سنوات فى الجامعة ثم يتخرج بدرجة لا تنفعه أو تنفعنا فى شىء ثم نعينه فى وظيفة حيثما اتفق، ونعطيه راتبا هو أشبه بالإحسان.

ونحن نترك الفلاح دون أى توجيه ونطلق الماء فى الترع والقنوات دون أن نوجه الفلاح إلى طريقة استخدام هذا الماء، ونوزع عليه المبيدات دون أن نعلمه كيف يستعملها على خير وجه، فينثرها نثرًا دون معرفة أو فهم فتضيع هباء دون أن يتحقق من ورائها أى غرض مقصود.

ولو أننا أخذنا هذا الشباب الضائع الذى تخرجه الجامعات ودربناه على التوجيه القروى وأرسلناه إلى القرى ليكون مرشدًا للفلاحين ومعينا، لا نتفع هو بحياته ولا نتفعنا نحن به، وأؤكد لك أننا لو أردنا أن نمحو الأمية لمحوناها فى أقصر وقت، فلدينا شباب متعلم كثير جدًا يستطيع أن يمحو أمية الأميين، ولكن لابد لذلك من خطة ونظام وترتيب وليس من الضرورى أن نبتكر هنا شيئًا جديدًا فقد سبقنا إليه الروس وسبقنا إليه الصينيون. فقبل الثورة الحمراء فى روسيا فى أكتوبر ١٩١٧م لم يكن هناك بلد فى أوروبا أكثر تخلفًا وأمية من روسيا، فكيف أزالوا الأمية من بلادهم؟ والصين أيضًا كانت تعانى هذا الداء قبل ثورة ماوتسى تونج، فاسأل الصينيين – وهم ١٠٠٠ مليون كيف أزالوا الأمية من بلادهم.

هل نحن نريد أن نمحو الأمية حقًا ؟.

وهل نحن نريد النهوض بالقرى فعلاً ؟.

ستعرف الجواب إذا أنت وضعت فى قلبك تمثالاً لمصر.

وهذا التمثال – وهو هنا رمز – سيذكرك دوامًا بمصر فتتصرف دائمًا بما فيه خير مصر وما فيه خيرك.

وتمثال لمصر فى ميدان التحرير قد ينفع من فى قلوبهم خير..

عندها «سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيه ولا يحيى»..

ونحن والله المعذبون فى النار الكبرى.

ونحن والله الذين لا يموتون ولا يحيون.

واسأل نفسك إن كنت حيا مع الأحياء.

وأسألها إن كنت ميتا بين الأموات.

ومهما يكن الجواب الذى تعطيك إياه نفسك، فأنا أقول لك إن سبب شكواك ومتاعبك أنك لا تذكر مصر.

قلبك فراغ من مصر.

وهذا سبب الشعور بالضياع.. وهو سبب الضياع نفسه.

وقد آن لنا أن نفهم أن أحدًا من المواطنين لا يمكن أن يسعد بخير يسعى لتحقيقه لنفسه على حساب الآخرين.

لك أن تكسب ما تستطيع كسبه بالطريق المشروع دون أن يكون لك على حساب الآخرين.

وأنا أكتب لك هذه السطور وأنت تقرأها آمنًا وسعيدًا بها إذا كنت من السعداء الذين لم يحققوا لأنفسهم كسبا غير مشروع ولم يثروا على حساب الآخرين.

وفى هذه اللحظات التى تقرأ فيها هذه السطور هناك ألوف من اللصوص والمزورين يرتجفون، وكل منهم يحاول أن يهرب ما له أو يزور أوراقه خوفًا من تحقيقات أو أبحاث قد تؤدى إليه.

ولا أنسى مشهدًا شهدته من شهرين وأنا فى المطار.

كنت قد أنهيت إجراءاتى ومضيت إلى قاعة انتظار النداء لركوب الطائرة، وكان معى صديق فطلب لنا شيئًا من الشاى، ومضينا نطالع الصحف ونرشف الشاى.

وعلى مقربة منا كان هناك رجل قلق مضطرب يروح ويجئ، ثم يجلس ثم يقوم ويروح ويجئ، ويمضى إلى السوق الحرة ويشترى خمرًا ثم يعود، ثم يمضى ويشترى عطرًا ثم يعود، ثم ينظر فى ساعته يتعجل النداء للرحيل.

وعندما أعلنت المذيعة أن الطائرة تتأخر ساعة صعق للخبر.

وقال لى صاحبى: ما بال هذا الرجل قلقًا متخوفًا لا يستقر على حال.

لابد أنه مهرب أو متهرب، فكل هذه الحيرة لا تكون إلا إذا كان الرجل يتعجل الإفلات.

وراح الرجل وجاء، ثم اختفى دقائق فى دورة المياه ثم عاد ونظره يدور فى كل اتجاه.

ثم أقبل عليه صاحب له يبدو أنه كان ينتظره فهش له وابتسم واستراح، وناوله الرجل شيئًا ومضى.

واستفسرت عن هذا القادم فعلمت أنه من موظفى المطار واتت الطائرة، وأسرع صاحبنا فأخذ مقعده فى الدرجة الأولى، وانجعص وتنفس الصعداء وطلب شيئًا من الخمر وكنا إلى جواره.

وفتح حقيبته وأخرج أموالاً مصرية وأمريكية وسويسرية رزمات رزمات وأخذ يعدها ويدون فى مفكرته.

ثم جعل يراجع أوراقًا وهو لا يكف عن مداعبة المضيفات وقلت لصاحبى واحد أفلت.

واحد أكل لحم مصر ومضى!

ترى كم آكل للحم مصر يصلون إلى هذا المطار ويرحلون منه كل يوم.

وقلت: الحمد لله.. أننى لست من هؤلاء..

وعلم الله أن ما عاناه هذا الرجل من الخوف والذل والانكسار لا تعد له ثروة الدنيا، لقد رأيناه فى وقت محنة ولكن ثق أن هذه كانت حاله دائمًا حتى فى أيام الأمن والهيصة والتكية المفتوحة بلا بواب..

لأن المريب يكاد دائمًا يقول خذونى..

وعندما غفت عينى فى الطائرة وأنا فى الأنبوب الطائر بين الأرض والسماء تحسست قلبى فأحسست أنه فيه تمثالا لمصر..

وقلت والدمع فى عينى: ليحرسك الله أيتها الحبيبة، وليكن فى عونك على الضالين من أبنائك الذين تخلو قلوبهم منك مثل التعيس الذى كان يجلس معنا هناك، إنه الأشقى الذى يصلى النار الكبرى، لا يموت فيها

ولا يحيا.. إنه فى النار وإن كان فى أمان وبيته فى قاعة كأنها الجنة.. هذا هو عدو نفسه.

لأنه عدو لمصر.

لهذا أنا أطالب بتمثال لمصر فى ميدان التحرير وفى كل ميدان تحرير..

إن كل الذين حاولوا أن يصنعوا من مصر تمثالاً لأشخاصهم أو أتخذوها قاعدة لذلك التمثال خاب ظنهم، فلم يوفقوا فى صنع ذلك التمثال وبقيت مصر..

ولا تقل لى على أسلوب الساذجين الذين يتاجرون بالتفاؤل: أجل وبقيت مصر قوية عزيزة لم يصبها أذى خالدة على الدهر..

لأن مصر بقيت فعلاً .. ولكنى الأذى الذى أصابها شديد..

وكل واحد من أولئك المستبدين أخذ من لحمها وعظمها ودمها شيئًا، ونحن الآن أمام بقية قليلة من مصر، نحاول أن نحافظ عليها ونرعاها وننميها لتستعيد نفسها كلها..

فقد أراد محمد على أن يصنع من مصر قاعدة لتمثال لنفسه ولأسرته من بعده، وقد فشل هو ومن بعده من نسله..

وبقيت مصر ولكن على أى حال؟.. مدينة منهوكة القوى فلم تستطيع مقاومة الاحتلال، لا تصدق أن معركة، التل الكبير لم تستغرق اكثر من ثلاثين دقيقة هل هذا يعقل؟..

جيش مصر الباسل الذى اقتحم الدولة العثمانية ووقف أمام بروسه وفتح السودان حتى بحر الغزال وغزا المورة فى بلاد اليونان وكسب هناك نصر تريبو ليتزا، وفاز فى النهاية بولاية المورة وجزيرة كريت، جيش مصر هذا لا يثبت للإنجليز إلا ثلاثين دقيقة ثم يأخذ رجاله فى الفرار؟..

نعم لأن رجال ذلك الجيش بدأوا معركتهم ١٨٠٥م والجيش الإنجليزى دخل مصر فى سبتمبر ١٨٨٢م هل هناك جيش فى الدنيا يستطيع أن

يخوض معركة متصلة ٧٧ سنة لقد أنهكوه واستعملوه حتى بل كل جزء فيه ..

لقد ألغاه عباس، ثم حاول ترميمه سعيد، ثم جاء إسماعيل فأقام عليه الأجانب قادة، واحد منهم كان أمريكيًا تافها من المسرحين من جيش الجنوب فى الحرب الأهلية الأمريكية.

وبعد أن انهزم عرابى وعاد توفيق أصدر مرسومًا من سطر واحد يقول: يلغى الجيش المصرى ويسرح رجاله..

ولى النعم الخديوى توفيق، عزيز مصر كما قال بعض كلاب الكتاب يحل جيش بلاده ويلغيه بسطر واحد.

هذا الجيش الباسل العظيم كم أساءوا استخدامه، وكم ومرمطوه حتى إن المصرى أصبح قبل ثورة سنة ١٩١٩م يكره الخدمة العسكرية ويفر منها، وهو معذور، فأين الجيش الذى يظل فى معركة متصلة ٧٧ سنة؟ وأى جيش يستطيع النصر إذا عين الخديوى ولى النعم على قيادته أشقياء تعساء من أمثال عثمان رفقى الذى كان يكره المصريين أهل بلاده..

ثم تقول لى إن مصر خرجت من هذه التجربة المريرة سالمة؟.

لا يا عزيزى لقد انطحنت المسكينة وفقدت من لحمها وعظمها ودمها الشىء الكثير.

أريد أن أقول بعد هذه التجارب المريرة كلها، بعد هذا الغلب كله، بعد هذه المرمطة كلها، لماذا لا نقرر منذ الآن أن ننسى أنفسنا، أن نكون جنودا مجهولين، أن نكون بنائين صالحين، ينسون أنفسهم ليبنوا الوطن ولوجه الوطن لوجه الله؟..

أعتقد أننا نستطيع ذلك..

وإذا كانت للآلام الماضية فائدة فهى أن نتعظ بها لكيلاً نعود إليها، ومصر أيها الناس تعبت جدا، تعبت منا وبنا بقدر ما تعبت من الآخرين، ونحن لا نرحمها، مازلنا نحاول أن نقتطع؛ من جسدها قطعًا ليبنى كل منا

لنفسه من لحمها بيتا يسكنه، ومازال كل منا يحاول أن يجعل من أولاده أطباء ومهندسين ومعلمين وقضاة ومحامين على حساب مصر..

مصر تدفع كل شيء، ونحن ننفق وننسى أن مصر لن تستطيع أن تدفع فواتير الحساب إلى الأبد.. والنتيجة: الدين المتراكم والمشاكل المتعالية.. كالجبال..

وقد جاء الوقت ليقف هذا كله..

جاء الوقت لننسى أنفسنا ونذكر مصر.. مصر وحدها.

جاء الوقت الذى نضع أنفسنا وأولادنا كما تريد مصر، لا كما نريد نحن، لقد قضينا عشرات السنين منذ ثورة ١٩١٩م وكل طائفة تريد أن تصنع من مصر تمثالاً لنفسها، كلهم لا استثنى أحدا..

والآن ونحن فى عصر جديد فهل نحن نريده جديدا حقا؟.

إذن فلننس أنفسنا لنتوقف عن تلك الأنانية الوضيعة التى لم نجن منها إلا الآلام وخيبة الآمال.

لنذكر مصر، ولتكن أمنا فعلا لا ست الحبايب التعيسة التى يهلكها أولادها حتى يبيض شعرها ثم يقدمون لها مكافأة: ميدالية من صفيح وعليها: «الأم المثالية».

لا نريد مصر ست الحبايب، ولا مصر الأنشودة التى تغنيها فلانة أو علانة، بل نريد مصر.. مصر الحقيقة مصر الأصيلة.. مصر التى تصنع نفسها كما تريد، مصر التى تأمر كلا منا فيطيع، من تريد مصر منه أن يكون حاملاً للتراب بالمقطف فليحمل مقطف التراب على رأسه وليكن بذلك سعيدا..

سيجد نفسه فى النهاية سعيدًا، لأن مصر التى ستقوم كما ينبغى أن تقوم، ستكون يومها حلوة وفاتنة ودرة بين دول هذا الكوكب..

وهنا قد لا نحتاج إلى تمثال لمصر فى ميدان التحرير ولا فى أى ميدان تحرير.. مصر هذه ستكون مصدر الخير الحقيقى لكل منا.. مصر هذه ستكون أم الدنيا حقًا.

(٧)
دجاجة*..

أحببت أن أطرف القارئ اليوم بحديث سيدة من أجمل وأكمل نساء عصر الإسلام وهى دجاجة بنت أسماء بن الصلت السّلَمِية ، ولكن القلم سبقنى إلى حديث دجاجات اليوم اللائى أصبحن ملكات فى مجتمعنا مجتمع المفاجيع فنحن نستورد دجاجًا بملايين الجنيهات ، وحينما توجد الملايين فلابد أن تجد دود الملايين وسوس الملايين ، وهم اللصوص والوسطاء والمفسدون لأننا لا يمكن أن ندع نعمة الله خالصة أبدًا. ولابد أن نشوبها بنقمة حتى نعمة القطن الأبيض الجميل أفسدناها بدود الورق ودود اللوز ، وقد قيل إننا ننزع الدود أولاً، ثم – وإلى جانبه – القطن.

حديثى اليوم لا يدور حول دجاجة الموائد والتموين التى أصبحت فى مجتمعنا هذا مجتمع المفاجيع. شخصية رئيسية فى حياتنا ، فهى تظهر فى العناوين الكبرى فى الصفحات الأولى من صحفنا قومية ، وغير قومية ، ولا يكاد يمضى يوم لا نتحدث فيه فى مجالسنا جميعا كبيرها وصغيرها – عن الدجاجة وسعر الدجاج ووزن الدجاجة ، وهى تحتل مكانًا صدرًا فيما تعرضه وزارة التموين على مجلس الوزراء ، لأن الدجاجة ملكة الطعام وكوكب الموائد. وفى كل يوم يدلى المسئولون بتصريحات كبرى عن الدجاج ومشروعات الدجاج ، والمحافظون يتنافسون فيما ييسرون فى إنشاء مزارع الفراخ ومجازر الفراخ آلية وغير آلية.

وما دامت الدجاجة قد أصبحت مسألة قومية فقد أصبحت من اختصاص جهتين عظيمتين: الأولى جبهة المسئولين الرسميين الذين يعتبرون أنفسهم لا ندرى لماذا مسئولين عن تقديم دجاجة لكل مواطن ،

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢ مايو ١٩٨٢م .

والثانية جهة التجار (الذى لا يوصفون قط إلا بأنهم جشعون) وتجار السوق السوداء والمهربون وأصحاب مكاتب التصدير والاستيراد التى كثرت فى أيامنا هذه حتى أصبحت شغلانة كل متسكع ومتعطل. أنهم يشتغلون بتصدير الدولارات واستيراد أى شىء لا ينفع وكل شىء يضر من لوسيون الحلاقة بريشيف افترشيف إلى السجائر ومعلبات طعام الكلاب والدجاجات التى انقض زمان صلاحيتها حتى إنك إذا قدمتها للكلاب لما أكلتها الكلاب ، لأن الكلاب يا سيدى - مهما كان رأيك فيها - تحترم كلبيتها ولا تأكل دجاجا فاسدًا أبدًا.

الكلاب لا تأكلها ولكننا نحن نأكلها ، فالكلب قبل أن يأكل شيئًا يتشممه ليعرف إذا كان يجوز له أن يأكله أو لا يجوز ، أما نحن فنأخذ الدجاجة ولا نعنى بأن ننظر فى تاريخ انتهاء صلاحيتها - وهو مكتوب على كل دجاجة مستوردة - ولكننا لا نقرأ المكتوب على الشىء قبل أن نأكله كما تتشمم الكلاب الشىء قبل أن تأكله ، وربما كان السبب فى ذلك هو أننا نريد أن نثبت أن هناك فرقًا بيننا وبين الكلاب ، وربما كان السبب هو أن ما نتعلمه فى المدارس والجامعات لا يكفى إلا للنجاح فى الليسانس أو البكالوريوس ثم نعود أميين كما ولدتنا أمهاتنا ، وإن كنت تشك فى كلامى هذا فسل عضوًا من أعضاء لجنة اختيار الذين تقدموا منذ شهر ليكونوا مذيعين فقد تبين أن فيهم من لا يعرف إذا كانت الفيوم فى وجه بحرى أو قبلى ، بل طلبوا إلى واحد منهم يحمل ليسانسًا قد الدنيا أن يكتب لفظ: قرأ فكتب القاف والراء بعد تردد ثم توقفت يده لأنه لم يعرف أين يضع الهمزة ، فترك لجنة الامتحان وخرج تاركًا الهمزة معلقة فى مبنى التليفزيون إلى يومنا هذا.

لن أحدثك فى هذا المقال عن الدجاج الذى يؤكل والدجاج الذى لا يؤكل، لأننى لا أريد أن أعكر مزاجك بهذه السطور ، فأنا أعرف أن الذين يعقلون يتعجبون كيف تصبح الدجاجة مثارًا للمتاعب وسببًا من

أسباب الأزمات القومية والذين لا يعقلون غاضبون لأن الدولة لا تجعل لهم الدجاج بالمجان فى بلد أصبح فيه التعليم كله بما فيه التعليم الجامعى بالمجان فإذا كانت الجامعة حقًا لكل مواطن فلماذا لا تكون الدجاجة كالماء والهواء، أو تظن يا سيدى أن أكبادنا التى تمشى على الأرض محروسة بعناية الله يمكن أن تشب وتصبح مواطنين صالحين ومواطنات صالحات بغير دجاج ، ورحم الله أيام كنا طلابًا فى المدرسة فكانوا يقدمون لنا الغداء دون أن نعرف إن كان فيه دجاج أو لم يكن فيه دجاج ، ولا نذكر أن الدجاجة كانت يوما من الأيام مشكلة قومية ، ربما لأن أهل جيلنا والجيل الذى أنشأنا كانوا مشغولين بمسائل أخرى غيرهمُ البطون ، كانوا مشغولين بالحرية والاستقلال والثقافة وتربية المواطنين لا تربية العجول.

وفرنسا يا أخى أكبر بلد منتج فى أوروبا فى عصرنا هذا ، فهى تنتج خمسة وعشرين مليونا من الدجاجات فى السنة تستهلك منها عشرة وتصدر الباقى ، فالدجاج هناك مورد رئيسى من موارد الثروة القومية ، وإذا كان هناك بلد يمكن أن تصبح الدجاجة فيه مشكلة قومية هو فرنسا ، ولكن الفرنسيين ناس عقلاء لديهم من المشاكل القومية ما يشغلهم ويهمهم أكثر من الدجاج ، وبدلا من أن يتكلموا عن الدجاج ويكتبوا عن الدجاج فهم يعرفون كيف يربونه وكيف ينتجونه وكيف يصدرونه وكيف يجعلون منه نعمة قومية؟. أما نحن فنفضل أن نجعل من الدجاج مشكلة قومية ، ولهذا فنحن لا نتجه ولا نربيه بل نستورده ، وبينما كان الفلاحون فيما مضى يربون الدجاج ويأكلون منه ويطعموننا من فضلة خيرهم أصبحنا نستورده لهم من فرنسا وهولندا والصين والبرازيل ، ويتفلسف أصحابنا جهابذة الاقتصاد - ومنهم من كتب رسالته للدكتوراه فى اقتصاديات ورك الفرحة ويقول لك: لأن الفلاح فى عصر الإقطاع الماضى لم يكن يأكل الدجاج ، كان محرومًا منه وكان يبيعه.

– ولن كان يبيعه يا مولانا؟.

– كانوا يبيعونه فى سوق القرية.. سوق التلات.

– ومن كان يشتريه منهم فى سوق التلات؟ سلطات الاحتلال أو قوى الاستعمار ، كفى هزلاً وتقل ظل أيها الناس ، ولا داعى للازدراء بالفلاحين ليل نهار. لقد كان فلاحنا يأكل الدجاج فيما تسمونه عصر الإقطاع وما قبل عصر الإقطاع ، وعندما كنا طلابًا كنا نذهب إلى أهلنا فى القرى لنأكل البط والدجاج ، ولم نكن نأكله فحسب ، بل كان كل منا يأتى معه بدجاجتين ثلاثا لكى نأكلها بقية الأسبوع مع إخواننا من أهل القاهرة الذين كانوا يشتاقون إلى دجاج القرى كما نشتاق نحن اليوم إلى الدجاج الذى ينتجونه اليوم فى ضواحى باريس.

ولو أننا كنا نحن ننتج ، خمسة وعشرين مليون دجاجة فى السنة لكانت لدينا الآن خمس وزارات للدجاج: واحدة لتربية الكتاكيت فهى وزارة الكتاكيت ، وواحدة لذبح الدجاج وتنظيفه وتثليجه وتعبئته فى علب، فهو وزارة الإنتاج الدجاجى ، وثالثة لنقله وتصديره فهى وزارة مواصلات الدجاج ، ورابعة لتوزيعه فى الداخل فهى وزارة التجارة الداخلية للفراخ ، وخامسة لتوزيعه فى الأسواق العالمية ، فهى وزارة التجارة الخارجية للدجاج ، ولابد كذلك من التفكير فى إنشاء وزارة سادسة لمكافحة تهريب الدجاج من ناحية ومحاربة إفساده لبيعه دجاجًا فاسدًا من ناحية أخرى لأن الدجاج شأنه فى ذلك شأن غيره من أمورنا ينقسم إلى نوعين: دجاج صالح ودجاج فاسد ، ونحن ننتج الاثنين ، وعندنا متخصصون فى هذا وذاك ، وقد ضبطنا إلى الآن لا أدرى كم واحدًا من منتجى الدجاج الفاسد أو مستورديه ، وقد هربوا جميعا بأموالهم وأسرهم لأنهم كما قلت لك متخصصون فى إنتاجه استيراده وتوزيعه ، وهم متخصصون لأنهم درسوه فى جامعات بلاد بره ، وبرنامج الدراسة يتضمن مادة أساسية عن: الهرب والتهريب ، وإذا لم يكن هؤلاء قد درسوا هذه

المادة ونجحوا فيها بتفوق فكيف تفسر هروب واحد منهم بأسرته وأمواله كلها وقدرها خمسة عشر مليونا من الدجاجات معذرة: الدولارات أقصد وأنت تعرف أن لدينا أجهزة ضبط وربط بلا نهاية تعرف كيف تضبطك إذا خرجت وعليك حكم بالحبس يوم واحدًا دون تنفيذ ، ويبدو أن القانون ينص على منعك من السفر إذا كان قد حكم عليك بأسبوع سجنًا ، أما ما فوق ذلك فلم يرد عليه نص فى القانون وإلى أن يوضع هذا النص تستطيع أن تدخل وتخرج كما تريد ، فإذا كنت قد اقترفت جناية تعرضك للسجن أسبوعًا فأحسن لك أن تزيد فى حجمها حتى تصير مدة العقوبة خمس سنوات مثلاً ، وهنا تستطيع أن تدخل وتخرج مشمولا دائما بالتحيات والابتسامات.

ولا تتصور يا سيدى أن فى كلامى هذا أدنى تجاوز للواقع ، فإنك تقرأ عندنا من غرائب الأخبار ما يوقف أجهزة العمل فى ذهنك ، ومثال ذلك أن الصحف نشرت من شهور فى صفحاتها الأولى خبرًا مخيفًا عن عمارة سموها برج الموت فى حى الزمالك ، وقالوا يومها إن صاحبها زاد فوق عدد الأدوار المصرح له بها عشرة أدوار أى أنه بنى فوق العمارة عمارة مثلها (المجموع ٢٢ دورًا) واهتمت الحكومة بالموضوع وأحالت هذا الموضوع الخطير للتحقيق ، وثبت بالفعل أن الرجل مخالف ولكنه حصل على موافقة المسئولين على زيادة كل دور ، وقد أحيل خمسة عشر من أولئك المسئولين للمحاكمة وثبتت عليهم التهمة ، أما صاحب العمارة فلم يمسه سوء لأنه لم يخالف القانون ، فقد حصل على موافقات رسمية ، ومازالت عمارة الموت قائمة على ضفاف النيل مائلة نحو الماء بعشرة سنتيمترات تزيد مع الأيام ، وأغلب الظن أن المسئولين يظنون أن العمارة ستتوقف عن الميل إلى أن يصلوا إلى حل معقول ، فإذا غافلتهم الخبيثة وسقطت فى الماء وهدمت شوارع بأسرها فسيحيلونها يومئذ للمحاكمة لأنها هى التى سقطت دون أن يكون هناك نص يسمح لها بالوقوع.

لن أحدثك هذه المرة عن دجاجة الجمعيات والتهريبات صالحة وفاسدة وإنما سأحدثك عن دجاجة أجمل من ذلك وأهم ، سأحدثك عن دجاجة هى فعلا من شخصيات التاريخ ، تحتل فى مؤلفاتنا وحولياتنا مكانًا صدرًا.

أحدثك عن دجاجة بنت أسماء بن الصلت بن حبيب وهى واحدة من أعاظم نساء الجيل الثانى من المسلمات ، فهى والدة عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس فاتح خراسان وصاحب النصيب الأكبر فى فتح فارس بعد سعد بن أبى وقاص وأبى موسى الأشعرى وهو ابن خال عثمان بن عفان أمير المؤمنين ، لأن أم عثمان هى أروى بنت كريز بنت أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم ، وأم حكيم البيضاء هى جدة أم عامر بن كريز وجدة عبد الله بن عامر ، ولهذا فعندما عزل عثمان بن عفان أبا موسى الأشعرى عن البصرة وولاها عبد الله بن عامر بن كريز ، قال أبو موسى: قد أتاكم فتى من قريش كريم الأمهات والعمات والخالات يقول بالمال فيكم هكذا وهكذا يريد أن عبد الله بن عبد الله الزبيرى وأنه سيستعمل الناس بماله ، قال ذلك المصعب بن عبد الله الزبيرى فى كتاب نسب قريش ، وأضاف: وكان كثير المناقب ، وافتتح خراسان وقتل يزدجرد (الثالث آخر أكاسرة الساسانيين) فى ولايته وأحرم من نيسابور شكرا لله (على ما آتاه الله من فتح خراسان) وهو الذى عمل السقاية بعرفة أى أنه هو الذى أنشأ ساقية للماء ليستقى منها الحجاج فى عرفة ، ويقال إنه أتى به إلى رسول الله ﷺ وهو صغير ، فقال: هذا يشبهنا ، وقد حلت به بركات الرسول فكان لا يحفر طالبًا الماء إلا وجده ، ومن كشوفه عيون الماء القريبة من البصرة وتسمى نياج ابن عامر ، وفى هذا الموضع قال ياقوت: استنبط ماءه عبد الله بن عامر بن كريز ، شقق فيه عيونًا ، وغرس نخلاً ، وولده به ، وساكنه رهطه بنو كريز ، ومن انضم إليهم من العرب.

وجانب كبير من فضل عبد الله بن عامر يرجع إلى أمه دجاجة بنت أسماء السلمى وأسماء هنا اسم رجل وهو ابن الصلت الذى يرتفع نسبه إلى

بهثة بن سليم بن منصور ، فقد كانت دجاجة من فضليات أهل زمانها ، ولدت وشبت فى أيام النبى ﷺ ، فهى تكاد أن تكون صحابية لولا أنه لم يؤثر لها شىء من أخبار الصحابيات ، ويبدو أن الذى صرفها عن الالتفات إلى العلم والرواية والتماس الآثار أنها كانت فى ذلك الحين شابة بارعة الجمال ، فلم تكد تبلغ سن الزواج حتى تهافت عليها الخاطبون ، وفاز بها عامر بن كريز لوجاهته فى قومه وكثرة ماله ، وكان إلى جانب ذلك جميل الطلعة ظاهر الوسامة ، وقد علا ذكر دجاجة بين نساء قريش فقد ظهر لها فضل وعقل ، واتجهت إلى العلم بعد زواجها وإنجابها الأولاد فقرأت وتأدبت وعرفت الدين معرفة حسنة وأنشأت على الفضل والدين ابنها عبد الله بن عامر وكانت أكثر من ابنها فضلاً وعقلاً ، فظلت تشير عليه بالرأى بعد أن تولى البصرة وفتح خراسان وتولى حكمها ، وقد غلط فى تصرفه السياسى مرة فوبخته توبيخًا شديدًا ، وتوفى عنها زوجها عامر بن كريز فتزوجت من بعده عميرة الليثى وأنجبت منه عبيد الله بن عمير وكان من أشراف عرب خراسان ، ثم توفى عنها فتزوجت قيس بن السائب المخزومى ، وكان من كبار بنى مخزوم ، فالسائب أبوه كان عما لسعيد بن المسيب الفقيه المشهور ، والسائب أبو قيس الزوج الثانى لدجاجة هو ابن حَزْن بن أبى وهب ، وأبو وهب هو أخو فاطمة أم عبد الله والد رسول الله ﷺ ، فكانت دجاجة إذن من صميم قريش وإن لم تكن قرشية الأصل وبالإضافة إلى ذلك كان هبيره بن أبى وهب هذا هو زوج أم هانئ بنت أبى طالب أخت على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان رسول الله ﷺ يأنس إليها ، ويبيت عندها فى بعض الأحيان بعد موت السيدة خديجة رضى الله عنها ، ومن بيتها أسرى برسول الله ﷺ إلى البيت الحرام ، فدجاجة بهذا النسب الزكى وذلك الصهر الكريم سلمية هاشمية عبشمية فى آن معا ، وهو نسب قلما اجتمع لامرأة من العرب فى مثل مكانتها.

وقد تمتعت دجاجة عمرها كله باحترام عظيم بين القرشيين جميعا والمسلمين على السواء ، وكان لها الأثر العظيم فى ابنها عبد الله بن عامر،

ومما يؤثر عنها أنها نصحت ابنها عبد الله بـألا يـتزوج قـط امـرأة تصغـره بسنوات كثيرة كما كان الكثيرون من العرب يفعلون ، وقالت له إن الصبية إذا زوجوها من يكبرها تقبل راغمة ولكنها تظل بعد ذلك كارهة لرجلها ولو أظهرت له الطاعة والمحبة..

وقد كان لهذه النصيحة أثر سيئ على هند بنت معاوية بن أبى سـفيان عندما زوجها أبوها من عبد الله بن عامر ، والخبر طريـف أورده المصعـب الزبيرى ولا بأس من روايته هنا لأنه يلقـى أشـعة مـن نـور علـى علاقـات زعماء القرشيين فى صدر الإسلام.

كان عبد الله بن عمر بعد أن فتح ما فتح من البلاد أيام عثمان بن عفان قد اعتزل السياسة مكتفيًا بأملاكه وضياعه ، وكان يملك بستان ابـن عـامر بقرية نخلة على ليلة من مكة ، وكان يملك أرضًا كثيرة فى الجحفـة غـير بعيد عن جدة الحالية فأراد معاوية بن أبى سفيان عندمـا ولى الخلافـة أن يغصبه ماله ، فعز ذلك على عبد الله بن عامر وقال: قـال رسـول الله ﷺ المقتول دون ما له شـهيد والله لأقاتلنـه حتـى أقيـل دون مـالى ، وغضبـت دجاجة لغضب ابنها وقاطعت معاوية بن أبى سفيان فأعرض عنه بل زوجه ابنته هند وكانت شابة صغيرة..

وقد رضيت هند بزوجها عبد الله بن عامر وأحبته وأنست إليه وأحبتها أمه دجاجة ، فكانت هند أبر زوجة بعبـد الله بـن عـامر ، قـال المصعـب الزبيرى أنها جاءته يوما بالمرآة والمشط. وكانت تتولى خدمته بنفسـها فنظـر فى المرآة ، فالتقى وجهه ووجهها فرأى شبابها وجمالهـا ، ورأى الشـيب فى لحيته قد ألحقه بالشيوخ فرفـع رأسـه إليـها فقـال: ألحقـى بـأبيك ، فانطلقت حتى دخلت على أبيها فأخبرته فقال: وهل تطلق الحرة؟ قالت: ما أتى من قبلى وأخبرتـه الخـبر فأرسـل إليـه فقـال: أكرمـك يـا بنتـى فرددتها علىَّ فقال: أخبرك عـن ذلـك. إن الله مَـنَّ علـى بفضلـه وخلقنـى كريمًا لا أحب أن يتفضل علـىَّ أحـد وإن ابنتـك أعجزتنـى عـن مكافأتـها

بحسن صحبتها لى فنظرت فإذا أنا شيخ وهى شابة لا أريد مالاً إلى مالها ولا شرفًا إلى شرفها ، فرأيت أن أردها إليك لتزوجها فتى من فتيانك كأن وجهه ورقة مصحف «أى صغير السن» فسكت معاوية وكانت هند بنت معاوية قد نال منها ما وقع لأنها كانت متعلقة بعبد الله بن عامر مع كبر سنه ، ولم ترض نفسها أن تسأل أباها أن يعود إلى الكلام معه ، وخافت أن يزوجها أبوها بأحد رجاله ، وكانوا كلهم راغبين فيها فحملها الهوى على أن قصدت دجاجة. وكانت فى قصرها بالبصرة فشكت إليها ما فعل ابنها عبد الله بن عامر ، وقالت إنها لا تود أن تقطع صحبته فقالت لها: أى بنية والله لقد أتيت من قبلى فأنا قلت لابنى من دهر مضى إنه إذا أسن فلا يتزوج شابة فيعضلها شأن الشيوخ ، فحفظها عنى وظن أنه يحسن إليك فإن كنت راغبة فيه فأنا آتى به ويردك ، وبعثت إلى ابنها قالت له: يا جافى ، ترد هذه البنية الشريفة مع كل من جميل صحبتها لك قال: حسبت أن هذا أحسن لها قالت: أردد عليك امرأتك ، فردها وعاد بها إلى داره وهو سعيد بها.. وكان أبوها قد عزم على ألا يعيدها إلى ابن عامر فلما علم بجلية الأمر قال: فعلتها بنت أسماء ، وكنت أعرف أنها لا تحبنى وما فعلت ذلك حبًا فى ابنتى ولكن مكيدة فىّ..

أما سبب كراهة دجاجة لمعاوية فترجع إلى أنه كان طمع فيها بعد أن ولى الخلافة ، وكان يعرف ما يعرفه الناس من جمالها ووفرة مالها ، وكان زوجها عمير الليثى قد خرج للعمرة من البصرة وانقطعت أخباره ، وقيل إن قافلته ضلت الطريق فأرسل إليها معاوية يعزيها فى زوجها فأوجست منه خيفة وحملها الخوف منه والصدق لزوجها عمير على أن أعدت ركبًا ليسير بها إلى الحجاز لتبحث عن زوجها ، فلقيته فى قرية على طريق النجدية، وحكت له ما كان ، وذهبا للحج فى الموسم وقلق عليها ابنها عبد الله بن عامر ، وكان شديد التعلق بها ، وحسب أن معاوية أراد بها سوءًا فبعث إليه يتوعده إذا جرى لأمه شىء فأرسل إليه يقول: ما لنا إلى أمك حاجة

ولكن بنا حاجة إلى مالك وقد حكينا ما كان من أمر معاوية عندما طمع فى ماله ورأينا أن ذلك كان سبب تزويجه إياه ابنته هند..

□□□

وكانت دجاجة أختا لخازم بن أسماء بن الصلت السلمى وعمة لعبد الله بن حازم السلمى عامل بنى أمية ، وكان ابنها عبد الله هو الذى استخدمه فى خراسان عندما كان واليها فى خلافة عثمان رضى الله عنه ، وقد عظم شأن عبد الله بن خازم فى خراسان ، وغار منه عبد الله بن خازم صاحب البصرة فرماه بقيس بن الهيثم ، وكانت بين قيس وعبد الله خصومة ، وكانت دجاجة تحب ابن أخيها عبد الله بن خازم وترأه من أحسن رجال بيتهم فبعثت دجاجة إلى ابنها أن يعزل قيس بن الهيثم عن سجستان حتى لا يكيد لعبد الله ووبخته بكلام عنيف فلم يسعه إلا أن يأتمر بأمر أمه فعزل قيس بن الهيثم ، وقد غاظ ذلك قيس وجعله ينقلب على بنى أمية جملة ، فلما دعا عبد الله بن الزبير دعوته كان قيس بن الهيثم بن قيس بن الصلت الكلابى من أوائل من بايعوه فولاه البصرة ، فجعل دأبه الكيد لعبد الله بن خازم وأرسل عبد بن حازم يستدعى عمته إلى خرسان عند ولايته الثانية لها ويبنى لها قصرًا اتخذ فيه الجوارى والحشم لعمته فكتبت إليه تقول لا أترك دارى فى البصرة قط ، وقد نزل المرض برجلى قيس بن السائب وما أحب أن أتركه وبه ما به ولو أعطيت مال الدنيا ، وكانت تسأل الله أن يجعل حفيدها عبد ربه بن قيس بن السائب من أهل العلم فاستجاب لها الله ، وصار حفيدها عبد ربه من كبار المحدثين وأهل العلم ، وكانت تحب سماع القرآن منه وكانت تقول:

حسبى من الدنيا أن الله أكرمنى بما لم يكرم امرأة من أهل بيتى: ابنى عبد الله صاحب لرسول الله ﷺ ، وصاحب فتوح خراسان حفيدى عبد ربه ابن قيس من حملة القرآن وأهل العلم..

ولكن فخر دجاجة الأكبر هو ابنها عبد الله بن عامر فهو معدود فى كبار الفاتحين ، وقد فتح خراسان وبنى مسجد نيسابور وتصدق بمال كثير ، ثم سمع أن الخليفة يريد أن يحفر نهرًا يكمل به النهر الذى بدأه أبو موسى الأشعرى فجمع مالاً كثيرًا وعاد إلى البصرة ليشق النهر فوجد عامله على البصرة زياد بن أبيه قد احتفر النهر فغضب عليه وقال: أردت أن تذهب بذكر النهر دونى وتباعد ما بينهما ، ومضى عبد الله بن عامر فوسع النهر وزاد فى طوله وفتح الماء وجعل يركض فيه بفرسه والماء يكاد يسبقه ، وقد أعجب ذلك أمه دجاجة فكانت تقول: نحن أهل الخير وابنى عبد الله ابن ميمون النقيبة لا يسأل الناس الله الماء حتى يجريه الله على يديه ويركض فرسه فيه. إلى هنا أقف بحديث الدجاجتين: دجاجة التموين ، وكل حديثها كرب وطمع وجشع وفساد وتهريب ، ودجاجة بنت أسماء السلمية جميلة عصرها ودرة من درر نساء المسلمين: زوجها عامر وابنها عبد الله صحابيان ، وعبد الله فاتح من مفاخر الإسلام ، وحفيدها فقيه محدث ، وقد عاشت كريمة على نفسها فى العصر الزاهر ، عصر صدر الإسلام قبل أن يعرف الناس الجرى وراء دجاج الجمعيات بقرون ، بل لم يكن شره الناس إلى الدجاج قد استفاض كما هو على أيامنا ، فقد كان طعام الناس فى تلك العصور مهما بلغت ثروتهم لا يخرج عن الثرائد والعصائد ، والثريد هو الفتة ، ولها ألف صنف ، والعصيدة هو البودينج أو الكاستارد، وقد دخل رجل يومًا على هشام بن عبد الملك فوجده غارقًا فى هموم ملكه متحيرًا بسبب اضطراب الأمور فى خراسان والمغرب فقال له: ألا أخفف عن أمير المؤمنين بشىء؟ عندى عصيد بالعسل واللوز فأشرق وجه هشام وقال: علينا بما يزيل الهموم!.

(٨)

ورقة امتحان*

يصل ويسلم لأيدى السادة والاخوة رجال وزارة التربية والتعليم العالى وغير العالى والبحث العلمى وخلافه.

ومن يدهم ليد السيد الأجل المجلس الأعلى للجامعات بمدينة القاهرة المحروسة بخير وسلامة ، آمين يارب آمين..

انتهت نوبة هذا العام من حمى الامتحانات. وهى حمى راجعة ، لا تكاد تذهب حتى تعود ، انتهى مولد الامتحانات وانفض سامره.

وضعت الأسئلة وطبعت ووزعت فى سرية تامة أو شبه تامة. وشكلت اللجان وعين رؤساها ومساعدو رؤسائها ومساعدو مساعدى رؤسائها. وزودنا الفراشين بالقلل وزجاجات البوارد ، وأقمنا مراكز الطب والإسعاف. وذاكر التلاميذ وأعد من استطاع منهم ما تيسر له من البرشام وما إليه من المعينات على النجاح ، وأفرغ التلاميذ فى كراسات الإجابة ما حفظوا فى رءوسهم وما حملوا فى جيوبهم السحرية وغير السحرية. واسحنفر المدرسون والأساتذة واستعدوا بالأقلام الحمراء وخاضوا معركة التصحيح ورسموا ما تيسر لهم من الدوائر الحمراء وقبضوا المعلوم ومضوا لحال سبيلهم ، وتحولت الإجابات إلى درجات وأفرغت الدرجات فى كشوف ورصدت فى جداول وأعلنت النتائج ونجح من نجح ورسب إلى القاع من رسب. وبقيت معلقة فى السائل جماعة تنتظر الفرج فى ملحق أو دور ثان أو ذيل.

وأنت لا تعرف لماذا نجح الذى نجح ولماذا رسب الذى رسب. إنها قسمة ونصيب ، وأمر الامتحانات عندنا عجب. فهناك أرقام سرية وظروف مشمعة ودواليب مسكرة بالشمع والمسامير والأقفال ، ومع ذلك فأنت لا تعرف يا أخى كيف يهبط الإلهام على بعض الطلاب ويجيئهم نبأ الأسئلة

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٥ أغسطس ١٩٨٢م .

مع ما يلزمها من الأجوبة فى مظاريف هى الأخرى مغلقة بالسامير ومشمعة بالشمعُ. ويقولون إن الذى يبعث إليهم بها هو سيدى العارف بكل شىء الشيخ مجتهد بن راسب الذى فرغنا للتؤمن مولده وكل عام وأنتم بخير..

ولو رأيتهم يا سيدى وهم يصححون الأوراق لسلمت معى بالفعل بأن عملية الامتحانات عندنا عملية سحر عجيبة لا يفهم سرها إلا الولى الشيخ العارف بكل شىء الشيخ المذكور أعلاه. مولانا مجتهد بن راسب أو زميله خيبان بن ناجح أو ناجح بن خيبان. فهم يا سيدى كثيرون ولكل لجنة شيخ وولى. ولكل مادة تسابيح وأوراد. ولكل امتحان عندنا زفة ومولد لا شبيه لهما فى الدنيا ابتداء من الأرقام السرية إلى المطابع السرية. والنتيجة فى النهاية واحدة من لم ينجح بالمذاكرة نجح بالبرشام ، ومن لم ينجح بالمذاكرة أو البرشام نجح بالرأفة وجبر الدرجات «وحرام عليك يا شيخ خليه يخلص دا أبوه يا عينى غلبان وأمه عندها تسعة غير الجاى».

وفى النهاية سيحصل الجميع على الشهادة أيا كان اسمها. ومن شاء منهم ركب فى قطار الدراسة محطة أخرى وحصل على الماجستير ومحطة أخرى ويأخذ الدكتوراه. وكلهم سيتوظفون. والموهوب سيتوظف والمنحوس سيتوظف. هذا قانون ثابت عندنا مثل قانون الجاذبية وكلهم ستطعمهم هذه الدولة الغلبانة. فهى ملزمة بأن تدبر لهم العيش ، ولكى ندير لكل هؤلاء العيش نحن نستدين. نستدين الدولارات لنحولها إلى قمح ومخابز آلية ونصف آلية. ونصف القمح الذى نضعه فى المطاحن والمخابز يضيع هدرًا فى الماكينات المعطلة وخطوط المخابز التى تعمل فى أمان الله فى كل بلاد الدنيا ، حتى إذا دخلت بلادنا وتولى أمرها ملائكة الرحمة من عمالنا تخربت وتوقفت وتحولت إلى حديد. وهم بطبيعة الحال لا يشعرون بما خربوا أو أفسدوا لأننا نقول لهم من أعلى المنابر أنتم أحسن عمال فى الدنيا. إن العامل المصرى عبقرى وارث حضارة عمرها سبعة آلاف سنة. ولأنه عبقرى ووارث للحضارة السبع ألفية المذكورة ، فإن الماكينة إذا

خربت على يديه الكريمتين فإن ذلك ليس ذنبه ، إنما الذنب دون أدنى شك.

ذنب الجاهل الذى صنع ماكينات المخبز. وكيف يستطيع العامل الإنجليزى أو الفرنسى أو الأمريكى أن يصنع آلة محترمة وليس لديه حضارة سبعة آلاف سنة؟. وكيف يستطيعون تشغيلها إذا كانوا لا يعرفون كيف يشربون عليها الشاى أو يأكلون الفول بالزيت الحار مع البصل الأخضر الذى لا يمكن أن يغسل: من الأرض إلى الحلق حتى لا تضيع بركته؟

وتتوقف الماكينات وتتحول إلى حطام وسادتنا الأسطوات يخرجون إلى المقهى المقابل ليتناولوا أكواب الشاى حتى تشترى لهم الدولة ماكينات جديدة. وفى أثناء ذلك يقبضون رواتبهم كاملة مع العلاوات والحوافز التشجيعية والمكافآت والبدلات والأفرتايم ، والدولة تدفع ، المساكين أمثالنا ممن يدفعون الضرائب يدفعون وأصحابنا يخربون ، والدولة تستدين وتدفع وتستدين وتطعم وتستدين وتكسو ، المتعطلون الذين يقبضون رواتبهم كاملة يتمطون على أنغام أنشودة حضارة السنوات السبع ألفية. وأغنية العامل المصرى الذى هو أعظم عامل فى الدنيا وخريج الجامعة المصرى الذى لا يعرف كيف يكتب جملة صحيحة بالعربية ولا يستطيع أن يقرأ سطرا بأى لغة أجنبية. يكتب رغم ذلك أبحاثًا علمية على أعلى مستوى، ونحن نعقد هنا مؤتمرات علمية يلقى فى كل منها ٧٠٠ بحث علمى جديد مبتكر. ويقال لنا إن بعضها تشترى حق الانتفاع به دول عظمى. وواقع الحال يقول إننا رغم هذه العبقرية العلمية لا نزال نصنع أبسط الأدوية الطبية بناء على تركيبة نشتريها بالفلوس من بلاد عمر حضارتها ٧٠ سنة لا سبعة آلاف ، حتى دواء بسيط مثل مرهم الأوكاسيد زنك الذى كان أبى يركبه بغاية الاتقان من خمسين سنة. أصبحت أجيالنا المباركة عاجزة اليوم عن تركيبه تركيبًا كامل الصفاء والتعقيم والتعليب ، والفضل فى ذلك

يرجع إلى مولد الامتحانات وزفتها وبركات الولى العارف بكل شيء سيدى الشيخ مجتهد بن راسب وأخيه غلبان بن كحيان. ولكل لجنة مولد وفى كل مولد شيخ له سرّباتع وأهى ماشية. وكل سنة وأنتم طيبون وربنا لا يقطع لكم عادة محسنين يا أصحاب البنك الدولى والبنك غير الدولى واعتمادات المساعدات الخارجية التى تقدمها الدول الرحيمة.

وأدخل الآن فى موضوع ورقة الامتحان التى أدير حولها هذا المقال.

وهى بطبيعة الحال ليست ورقة امتحان مصرية. فهذه لا يمكن أن تكون موضوع مقال ومن الممكن أن تكون موضع تحقيق وسين وجيم ورقابة إدارية..

والطالبة التى كتبت هذه الورقة تسمى جابرييلا نابوليتانو ، وهى أمريكية من أصل إيطالى وهى تدرس فى هاى سكول أى فى مدرسة تشبه الثانوية عندنا. وهم هناك لا يقيمون مولدًا لامتحان الثانوية العامة وهم لا يعرفون الهيستيريا التى تصيب مصر كلها فى موسم هذه الشهادة. بل ليس عندهم ثانوية عامة أصلا. بل كل مدرسة تجرى امتحاناتها بمعرفة مدرسيها وتحت إشراف مجلس إدارتها وهم لا يعرفون النمر السرية أو المطابع السرية أو ألعاب الجلا جلا التى نتقنها نحن نتيجة للسنوات الآلاف السبعة المذكورة أعلاه وأدناه. فهم ناس يحترمون أنفسهم ويثقون فى مدرسيهم وفى مجالس إدارات مدارسهم العامة والخاصة. لأن الطالب أو التلميذ هناك مواطن محترم له اسم ولقب وشخصية ومكانة ، ولا يتحول قط إلى ملف ميت أو رقم سرى أو رقم محفور على نحاسة فى طربوش خفير أو شيخ خفر.

الطالبة جابرييلا بوليتانو تختم دراستها الثانوية فى مدرسة فى مدينة ستامفورد «باليم لا بالنون» فى ولاية كونيكتيكات بالشرق الأمريكى. وختام المرحلة الثانوية عندهم يختلف عن ثانويتنا العامة العنيدة. فمعناه

عندهم أن اجتياز المرحلة الثانوية هو ختام مرحلة الصبوة ودخول مرحلة الشباب والرجولة والمسئولية فى الدراسة والحياة معا. أما عندنا فامتحان الثانوية العامة معناه انتقال التلميذ من مرحلة الطفولة المسئولة إلى مرحلة الطفولة غير المسئولة. لأن تلميذ المرحلة الثانوية محكوم إلى حد ما بالمدرسة ونظامها وغيابها وحضورها ، والناظر مازال إلى يومنا هذا رئيس المدرسة وله سلطات تنفيذية وهيبة فى عيون المدرسين والتلاميذ. أما الجامعة ففوضى شاملة أو بلغتنا العامة «سداح مداح» لا حضور ولا غياب ، وعضو هيئة التدريس لا يعرف الطالب ولو بالشكل ورئيس القسم ليست له سلطة تذكر. وقد تفلسفوا فسموه الآن رئيس مجلس القسم. أى أن رياسته تقتصر على مجلس القسم وليس له أى سلطان فعلى على أصغر عضو هيئة تدريس، ويستطيع أصغر مدرس أن يشتم رئيس القسم ويتحداه ويتهمه بأنه «متقصدنى يا سعادة البيه وبينه وبينى حزازات!» ويجد من يسمع له ، وخلال ست سنوات تبدل على رياسة قسم التاريخ فى كلية الآداب بالقاهرة ثلاثة رؤساء واحد جاءه انتداب فى الخارج فتركنا ومضى ، والثانى ضايقوه وأحرجوا صدره ففضل العمل فى جامعة صنعاء وترك لهم الدنيا والثالث قصروا عمره بالمضايقات والآلاعيب وطول اللسان حتى توفى رحمه الله شهيد النظام الجامعى الحالى. وما رأيك يا سيدى فى أننى أدخل الفصل لأحاضر فى ٤٠٠ طالب وطالبة بالإضافة إلى ٣٠٠ منتسبين. فإذا كان ولابد أن أحاسب المنتظمين عن الحضور والغياب وأعمال السنة فكيف أحاسب المنتسبين.

وأقسم بالله يا سيدى أننى طلبت إلى طالب ليسانس أن يكتب كلمة «أوكس» ومعناها ثور وكنا نتعلمها فى السنة الأولى الابتدائية فيما مضى. فنظر إلىّ الطالب واجماً ذاهلاً حتى حرف «أو» لم يكتبه وأعتقد أن سر حيرته هى الهمزة على «الأو» هل يضعها على البلاط أو فى جيبه أو يتركها معلقة فى هواء قاعة المحاضرات..

المهم أن الطالبة جبربيلا تابوليتانو رياضية ولها تفوق فى كرة السلة والمدارس الثانوية تتنافس عليها لا لكى تمنحها إعفاءات واستثناءات. بل لكى تفخر بفريق الباسكت فيها وهم يمارسون الرياضة فى المدارس والجامعة تنفيذًا لقاعدة العقل السليم فى الجسم السليم. أما الرياضة عندنا فتدليل للمحروس عضو فريق الكلية وإعفاؤه من درجات كثيرة حتى إذا لم نجمه فى فريق الكلية أو النادى يكون قد فسد على الآخر. لأن دفتر العناوين فى جيبه يحفل بأسماء البنات ، وإذا أرادت المقادير أن يصبح عضوًا فى الفريق القومى فسيذهب ليقصف رقبة مصر وينكس علمها ويعود ليعطى أحاديث فى الصحف والتليفزيون بصفته نجمًا أو قل كوكبًا..

والطالبة جابرييلا لا تعتمد على هذا الامتياز فى الرياضة ، ولكنها تبذل أقصى جهدها فى دارستها لأنها تريد أن تلتحق بإحدى كليات الحقوق بعد الفراغ من المرحلة الثانوية. وبالفعل تلقت خطابات ترحيب وقبول من ثلاث كليات حقوق فى ثلاث جامعات منها برينستون. وقد رسمت خطتها على أن تمارس المحاماة فى إحدى الولايات الأمريكية الجنوبية. وفى هذه الولايات وخاصة فى تكساس ونيومكسيكو وأريزونا والسيسيبى واتلانتا وكاليفورينا نسبة عالية من السكان تنكا الإسبانية.. نتيجة للهجرة الضخمة من المكسيك وأمريكا الوسطى إلى الولايات المتحدة. ولهذا لا يستغنى المحامى الذى يريد النجاح هناك عن إتقان الإسبانية ليتحدث مع العلماء. ولهذا فإن جابرييلا اختارت أن تدرس اللغة الأسبانية مادة أساسية من مواد امتحانها لاجتياز المرحلة الثانوية وتقوم بتدريس الإسبانية فى تلك المدرسة أستاذة جامعية تسمى سيبلفيا جوللوى. فطلبت الأستاذة من التلميذة أن تعد بحثًا فى الأدب الإسبانى موضوعه تحليل رواية عنوانها: «مائة سنة من الوحدة» ألفها أديب أمريكى من أصل إسبانى يكتب رواياته بالإسبانية والإنجليزية واسمه جبرائيل جارثيا ماركس. وكتبت الطالبة موضوعها وحصلت فيه على درجة الامتياز وجابرييلا تحصل دائمًا

على درجات الامتياز فى معظم المواد وقدمت أوارقها إلى كلية الحقوق بجامعة برنستون.

ولما كان التنافس على الالتحاق بكليات الحقوق فى الجامعات الكبرى هناك شديدًا. فإن طلاب كل جامعة يحرصون على ألا ينضم إلى جامعاتهم إلا أحسن المتقدمين. لأن الجامعات هناك تتنافس فى كل ميدان: فى العلم والرياضة ومستوى الأساتذة وخدمة الطلاب ومساكن الطلاب وشكل الكامبوس وهو الحرم الجامعى ، وهذا يتضمن المحافظة على النظافة والحدائق والأشجار والملاعب ونظافة المبانى. والطلاب لهم رأى فى ذلك كله والجامعة تعطيهم هذا الحق لأنه جزء من تربيتهم القومية المدنية eivie Formation . ولهذا فإن اتحاد الطلاب هناك مؤسسة جادة جدًا. والطلاب يحرصون على اختيار ممثليهم فيه لأنهم يتولون جانبا من مصالحهم ، والطلاب هناك يدفعون مصاريف تعليم عالية. لأن السفلقة ليست جزءًا من تكوينهم المدنى. وهم هناك يعرفون أن أى شىء له قيمة. فلابد أن يكون له ثمن ، والشىء الذى لا ثمن له لا قيمة له. ولهذا فهم يدفعون مصاريف لكى يحصلوا على تعليم له قيمة وتفكيرهم لم يصل بعد إلى المستوى الراقى الذى وصلنا إليه نحن ، وهو أن التعليم كله مجانى ودفع مصاريف فى مقابل التعليم عيب وفيه مساس بالديموقراطية. ونتيجة لهذا فإن التعليم الجامعى كله عندنا «زى قلته» ومادام الإنسان لا يدفع شيئا فهو كذلك لا يحصل على شىء وهذا هو المنطق وغيره كلام فارغ..

ولهذا فإن اتحاد طلاب جامعة برينستون له الحق فى الاطلاع على أوراق الطلاب المتقدمين إلى جامعتهم وإبداء الرأى فيها.

وعندما اطلع مجلس اتحاد طلاب مدرسة الحقوق فى جامعة برينستون على أوراق الطالبة جابرييلا نابوليتانو استوقفته كثرة درجات الامتياز التى حصلت عليها هذه الطالبة ، وطلب أحد الأعضاء الذين يدرسون الإسبانية

أن يقرأ الورقة التى كتبتهاجابرييلا عن رواية «مائة سنة من الوحدة» ومن تأليف جبرائيل جارثيا ماركس ، وتبين له أن الطالبة نقلت مقتطفات كثيرة جدًا من كتاب ألفته ناقدة أدبية تسمى جوزيفينا لودمر عن نفس الرواية. حقًا لقد أشارت الطالبة فى بعض الهوامش إلى كتاب جوزيفينا لودمر ، ولكن هناك فقرات أخرى نقلت دون إشارة.

وكتب هذا الطالب مذكرة فى هذا الموضوع قدمها إلى اتحاد الطلاب وقال إنه يتهم الطالبة المتقدمة للقبول وهى جابرييلا بنقل فقرات أطول مما تجيزه قواعد البحث العلمى فى موضوعها ، وهذا عندهم خطيئة أكاديمية كبرى.

وأرسل اتحاد الطلاب إلى مؤلفة الكتاب يبلغها بذلك ، واطلعت المؤلفة على الموضوع الذى كتبته جابرييلا وبينت أن الأمر لا يقتصر على نقل فقرات طويلة دون إشارة. بل إن الطالبة غيرت فى ذكرها للمراجع - أرقام صفحات الكتاب الذى نقلت منه على سبيل التعمية ، وهذا فى عرفهم تزوير جامعى غير لائق وكتبت المؤلفة مذكرة بذلك إلى مساعد عميد كلية الحقوق بجامعة برينستون وهو الأستاذ بيتر أونيك.

ومساعد العميد هناك يأخذ عمله جدًا ، لأنه أولاً أستاذ فاضل صادق ، ثم إنه يتقاضى مرتبًا محترمًا ، وهو يتقاضى مرتبًا محترمًا لأن الطلاب يدفعون مصروفات عالية. ولهذا فقد أولى الموضوع ما يستحق من اهتمام واستعان بأستاذ متخصص كتب له تقريرًا قال فيه: إن الطالبة بالفعل قد اقترفت الخطأ الأكاديمى المذكور ونسبت إلى نفسها كلامًا أخذته من كتاب جوزيفينا لودمر وحصلت بذلك على درجة امتياز لا يستحقها.

ولو حدث هذا عندنا وتلقى وكيل العميد مثل هذه المذكرة لما أعارها أدنى عناية لأنه لم ينشأ على هذه التقاليد الحنبلية أولاً. ثم إن الجامعة تعطيه راتبًا قدره ثلاثة تعريفة. وعندما أرادت إنصافه زادت مرتبه فجعلته

خمسة تعريفة ، ولأن الخمسة التعريفة لا تكفى ربع نفقاته. فهو مضطر إلى أن يدرس فى ثلاث جامعات ، واحدة فى القاهرة وواحدة فى وجه قبلى والثالثة فى وجه بحرى ، والمسكين يعود كل يوم إلى بيته ويرتمى هالكا فى فراشه كأنه ، فطيرة ، فطيرة رحمة من النوع الذى نوزعه على المساكين فى القرافة ، ومادام الأستاذ قد تحول إلى فطيرة رحمة فكيف يقرأ تقارير علمية عن طلاب متقدمين وطلاب مقتبسين. ولهذا فإنه فى حاجة إلى النوم لكى يصبح من الغد ويلحق قطار قبلى أو قطار بحرى؟ والتقرير ينام هو الآخر على مكتبه إذا كان سعيد الحظ ، أما إن كان تعيسا مثله فى ذلك مثل كل التقارير التى تقدم له فإنه يلقى به فى سلة المهملات.

□□□

وشكل اتحاد الطلاب لجنة من عشرة أعضاء لمساءلة الطالبة جابرييلا نابوليتانو فيما نسب إليها ، وكان فى اللجنة التى يرأسها طالب عدد من الأساتذة المتخصصين ، لأن هذه اللجنة لجنة نظام. والنظام مسئولية الطلاب واللجنة اسمها Faculty-Students Committee on Discipline وأمام هذه اللجنة اعترفت الطالبة بجانب من التهمة ، ولكنها قالت إنها لم تقترف خطيئة النقل من مؤلف آخر دون إشارة وهو ما يسمى باسم Plagiarism ولكنها وقعت فقط فى خطأ فنى Technical error لأنها كانت مشغولة جدًا بإعداد مقال آخر فى موضوع آخر فى اللغة الإنجليزية.

وفى الجلسة دافع عنها مندوب اللجنة الرياضية لأنه يريد أن يقوى فريق الباسكت للطالبات فى جامعته ، ودافع عنها كذلك أستاذ اللغة الإنجليزية لأن الطالبة بالفعل ممتازة فى اللغة الإنجليزية وكلاهما قال: إن الطالبة ممتازة من ناحية التكوين العقلى والبدنى ، وإنها قادرة على تحمل المسئوليات وجديرة بالثقة ، وإن هذا كله لابد أن يخفف من مسئولية خطئها.

وبعد مناقشة طويلة قدرت اللجنة بأغلبية الأصوات أن الطالبة اقترفت خطيئة النقل دون إشارة وتغيير أرقام الصفحات عمدًا ، وهذا تزوير. ولنلاحظ هنا أن اللجنة كتبت تقريرها ورفعته إلى مدير جامعة برينستون واسمه وليام ج. بوين لكى تعرضه على مجلس الجامعة.. وكان قرار مجلس الجامعة هو إلغاء امتحان الطالبة وإيقافها عن الدراسة لمدة سنة. وعلق مدير الجامعة على القرار قائلاً.. إننى كنت أميل إلى الرأفة على الطالبة ولكن خطأ النقل وادعاء كلام الآخرين خطأ فادح ، ولهذا فإننى أؤيد القرار ، وأرجو أن تستفيد الطالبة من هذا الدرس لتكون فى المستقبل طالبة أحسن وأقوى.

□□□

وقد قبلت الطالبة الحكم ولكنها طلبت إلى الجامعة أن تعيد النظر فى موضوعها لا لكى تلغى القرار أو تخففه فهى ستعيد السنة وتتقدم مرة أخرى ، ولكنها ترجو إسقاط تهمة النقل والسرقة العلمية عنها حتى لا تلازمها هذه الوصمة بقية حياتها. وقالت: إن العقوبات توقع للتأديب والتقويم لا للعقاب الأبدى. ونظر مجلس الجامعة فى الشكوى وقال: إنه يأسف لعدم استطاعته الاستجابة لما تطلبه جابرييلا نابوليتانو لأن أهم قاعدة من قواعد التكوين العلمى هى المحافظة على النظام والطالبة اعتدت على النظام أو الديسيلين ، ولا يمكن التساهل فى ذلك قط.

ولجأت الطالبة إلى مكتب محاماة فى نيوجرسى التى تتبعها جامعة برينستون وطلبت رفع قضية بغرض إسقاط التهمة ، وأحيلت القضية إلى المحكمة العليا فى نيوجرسى ولكن الدراسة الدولية للقضية تقول: إن المحاكم لا تستطيع رفع القضايا ضد قرارات الجامعات الخاصة. وجامعة برينستون ، مثلها فى ذلك مثل هارفارد وبيركلى وستانفورد وجونز هوبكنز وآن اربر ميشيجان جامعة مستقلة. أنشأتها جماعة دينية فى الأصل وجمعت لها التبرعات والأوقاف من الناس ، والسلطة العليا فيها لمجلس

الجامعة ومجلس الأمناء وهى التى تضع قوانينهـا وهى التى تطبقها وهـى لا تتقاضى إعانـات مـن الحكومـة إلا فـى مقـابل خدمـات علميـة تؤديـها للحكومة أو للشركات بناء على عقود.

وتحدثت الولايات المتحدة كلها فى ذلك الموضوع وكتبـت فيـها جرائـد النيويورك تايمز والواشنطون بوست ، وأرسلت مجلـة تـايم مندوبًـا أجـرى أحاديث مع الطالبة واتحاد الطلاب ومدير الجامعة. وكان من بين الأسئلة التى طرحت: هل من حق اتحاد الطـلاب أن يطلـع علـى أوراق الطـلاب المتقدمين إليـها وإبـداء الـرأى فيـها!. فكـان رد عميـد كليـة الحقـوق فـى الجامعة ، وهو أيضًا المستشار القـانونى لهـا: هـذه الجامعـة ليسـت ملك الحكومة أو مجلس الأمناء أو مجلس الجامعة ، وإذا كان لابد من أن يكون لها مالك فهم الطلاب!. لأن الجامعة وكل جامعة تنشأ من أجل الطـلاب ومجلس الجامعة ومجلس الأوصياء يتصرفـون بموجـب توكيـل ضمنـى مـن الطلاب. والطلاب يدفعون نفقات تعليمهم ، هـذه المصـاريف تكـون ثلاثـة أرباع دخل الجامعة. وحيث إنهم فى دور التكويـن فـإن مجلـس الجامعـة وكيل عنهم ومجلس الأوصياء مدير لأموال الجامعة.

وسأل مكتب المحاماة: وهذه الأرض التـى تقـوم عليـها الجامعـة وهـى نصف مساحة مدينة برينستون أليست تبرعًا من الدولة!. ومادامت الدولـة قد ساهمت بهذا القدر فكيف لا يجوز للمحكمة العليا فى الولاية أن تصدر فى شأن من شئونها قرارًا نافذًا!

فكان الرد: إن الولاية مادامت قد تـبرعت بتلـك الأرض للجامعـة فقـد خرجت الأرض مـن سـلطان الولايـة وأصبحـت مـالاً مـن أمـوال الجامعـة يتصرف فيه مجلس الجامعة ومجلس الأوصياء ومجالس الطلاب.

□□□

ولم يصدر القرار فى القضيـة بعـد ، وقـد أحيـل الموضـوع إلى المحكمـة الفيدراليـة أى الاتحاديـة لكـى تقـرر مـا إذا كـان للمحكمـة العليـا فـى

نيوجيرسى أن تنظر فى خصومة بين طالبة وجامعة برينستون ، فهذه مسألة دستورية عليا لابد من البت فيها أولاً ، ومعظم آراء القانونيين الذين استشيروا فى القضية هو أنه لا المحكمة الإقليمية العليا ولا المحكمة الفدرالية لهما الحق فى التدخل. لأن القضية هنا قضية نظام (ديسيبلين) أكاديمى. والجامعة هى الهيئة العليا التى تضع نظامها وتطبقه. لأن هذه هى مسئوليتها وحدها. فهى مسئولة أمام المجتمع الأمريكى الذى تمثله الحكومة والمحكمة العليا عن شىء واحد: تقديم علم صحيح سليم للطلاب وتخريج شباب صالح لخدمة الجماعة علميًا وأخلاقيًا ، ومادامت تقوم بهذا الواجب فلا سبيل عليها لأحد.

□□□

وبعد فيا أيها الإخوة هذه حكاية ورقة امتحان واحدة.

انتقلت من مدرسة ثانوية إلى جامعة. والجامعة اعتبرت نفسها داخلة فى القضية لأنها قبلت أوراق الطالبة. ومجلس اتحاد الطلاب تصرف بحزم ومسئولية ومجلس الجامعة أخذ الموضوع بجدية بالغة ودرسه واستشار الاختصاصيين وأصدر حكمًا ومدير الجامعة أنفق من جهده ووقته الكثير.

لماذا هذا كله؟!

إنها مسألة نظام ومسئولية علمية وقومية ومدنية.

ترى ماذا كان يحدث لهذه الورقة إذا حدث الأمر عندنا؟!

لا أريد يا سيدى أن أثير المواجع. مواجعى أنا أقصد ، فأنا أشعر كثيرًا أننى صانع قوارير ، لا أكاد أفرغ من عمل قارورة فخار حتى يحطمها الآخرون ، وحياتى على طولها طريق غاص بالقوارير المحطمة.

ولسان حالى يردد قول الشاعر:

لو بغير المـــاء حلقى شرق　　كنت كالغصان بالماء اعتصارى

(٩)

ولا عزاء للسيدات .. ولا للرجال*

الساعة تقترب من الثامنة صباحا وأنا معجل فأمامى يوم مثقل بالعمل حافل بالمتاعب لأننى ذاهب إلى إدارة حكومية وويلى من مكاتب الحكومة جميعا وأنا أسرع فى تجميع أوراقى وأرتبها فى حقيبتى وافرغ من إعداد نفسى. وفى اللحظة التى أريد أن أخرج منها يدق جرس الباب.

وافتح لأجد نفسى أمام إنسان على رأسه شبه طرطور بنى اجرب قصير وتحت الطرطور وجه فى لونه يبتسم وملابسه كلها أسمال. هذا موظف حكومة وبيده مظروف صغير فيه برقية طبعا. ومن كتفه تتدلى حقيبة بالية يطل منها ساندوتش ملفوف فى ورقة جريدة أنه يحيينى ويدعو لى بطول العمر والصحة والعافية وكل سنة وأنت طيب يا سعادة البيك وربنا ما يحرمناش منك ويخليلك الست والأولاد إلى آخر النشيد القومى للبقشيش. وأرد الباب وأفتح البرقية على عجل قبل أن أعطيه ما فى القسمة. ولكننى لا أكاد اقرأ سطرى البرقية حتى يملكنى الغضب. كان يمكن تسليمها إلى فى الموعد وأنظر فى الختم على المظروف الصغير وأراجع تأشيرات المسئولين عن الاستلام وأتأكد من ذلك وافتح الباب والغضب فى وجهى وأسال.

– متى تسلمت هذه البرقية؟

– الآن يا سعادة البيك وأنا قادم إليك من المكتب.

– غير معقول فإن المكتب لا يفتح أبوابه فى السابعة صباحا ليسلم البرقيات للتوزيع فى الثامنة وهذه البرقية عندك من أمس أو أول أمس، وكان من الممكن أن تأخذها منى هناك من أسبوع أو أكثر ولكنكم تتقاسمون

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٨ نوفمبر ١٩٨٢م .

البرقيات وتجعلونها حصصا على الأيام بحسب مطالب البقشيش ويبدأ القسم بالله ثلاثا وبكل الأولياء والصالحين وأغلق الباب واحتاج إلى نحو نصف ساعة لكى أراجع التواريخ واسترد هدوء نفسى وأسرى الغضب عن نفسى.

هذه البرقية من سكرتارية مؤتمر وتاريخ افتتاحه اليوم بالذات ومن عشرة أيام وأنا انتظرها لكى أخذ تذاكر السفر وتأشيرة الدخول وقد أرسلها الناس فى الموعد ولو إننى تسلمتها من خمسة أيام فحسب لكنت الآن هناك بإذن الله فالقيت بحثىَ والناس هناك اليوم يتعجبون من أمرى وإهمالى وقلة أدبى وعندهم حق

وأستعيد هدوئى وأسال الله العوض وأفكر فيما عسى أن أقول للناس دون أن أسئ إلى سمعة إدارتنا وينقضى فى ذلك نصف ساعة. ثم آخذ أشيائى وافتح الباب فإذا بالرجل مازال بالباب ومن تحت طرطوره الكالح يؤكد لى ألا ذنب له ويقول كلامًا سخيفًا ويدعو الله الا يقطع لى عادة ويؤكد لى أن كلى بركة واقول له:

– اسمع يا أخى أرجو أن تغيب عن وجهى الآن لقد ألحقتم بى الضرر وأسأتم إلىّ وإلى سمعتى وسمعة بلادى وإذا أعطيتك الآن مليما فكأننى أقبل اليد التى صفعت وجهى وهذا ذل وإذلال لا أرضاه.

وأتركه وأمضى مسرعًا والرجل واقف كالأبلة يزعم أننى ظلمته وأن هذه ليست معاملة ولأمر ما يتصور لى هذا الإنسان وأنا أجلس فى السيارة فى صورة بعوضة فإن البعوضة وظيفتها أن تشرب من دمك وهى إذ تقترب منك وتحط عليك تستنكر منك أن تذودها عن نفسك. وشريعة البعوض تستنكر منك قتلها. فهى بعوضة وهذه وظيفتها وليس من حقك أن تمنعها من حقها فى دمك مهما لحق بك من أذى أو ضرر. وربما مرض. والمشكلة الآن أن هذا الرجل قد تحول إلى بعوضة وقبل لنفسه هذا الوضع وأصبح يتصرف

على أنه حشرة لها الحق فى دماء الآخرين وتلاشى من كيانه كل إحساس إنسانى وانقطعت الصلة بينه وبين البشرية.

وهذه الفكرة ليست جديدة علىّ فإننى فى كل يوم أخرج من بيتى إنسانا أفكر تفكير إنسان وأشعر شعور إنسان فلا كاد أخطو فى الطريق حتى أبدأ فى التحول إلى حشرة كل إنسان أمر به أو أتعامل معه يقتطع جزءا من إنسانيتى ويجردنى من جانب من بشريتى على مدار اليوم فلا أعود إلى بيتى إلا قد تحولت إلى حشرة ضئيلة هزيلة واحيانا أجد أننى لابد أن أسرع بهذا التحول لكى أستطيع أن أتفاهم مع الناس والكثيرون جدا منهم قد حدث لهم ما حدث لعامل التلغراف: تحولوا إلى حشرات بمحض إرادتهم وارتضوا هذا الوضع وعاشوا به وفيه اصبحوا بعوضا أو ذباب أو صراصير.

ولم تعد لديهم من هذه الناحية أى مشكلة المشكلة هى أنت وأنا وأمثالنا ممن يرفضون أن يتحولوا إلى حشرات يتمسكون بأن يظلوا آدميين. إننا نشاز أو غير طبيعيين أو غير متعاونين ونحن نعانى والناس من حولنا يتعجبون. وكم من مرة سمعت بأذنى همسا يقول والأصبع تشير إلى.

– هو الرجل ده ماله؟ عنده حاجة فى عقله؟

□□□

وكانت وجهتى مأمورية الضرائب وأنا رجل شديد الحرص على أن أؤدى ما علىّ للدولة أسوى موقفى من هذه الناحية وعندى فى نهايات التسويات كلمات شكر وتقدير من رجال المأمورية.

وقد قدمت إقراراتى ومستنداتها فى موعدها عن سنتى ١٩٨٠م. ١٩٨١م ظللت انتظر الاستدعاء التقليدى لنتحاسب ونقفل السنتين ولكن أحدًا لم يحفل بى وأنا قلق من هذه الناحية وفى ذات يوم يأتينى من المأمورية استدعاء مهين كله صلف وكبرياء وتهديد. والاستدعاء فى مظهره إهانة فهو

مظروف صغير ممزق يستعمل للمرة الثانية. والمظروف كله بالخطاب الذى فيه مشبوك بدبوس دباسة. والخطاب ينهرنى لتأخرى فى تقديم إقرارات الضرائب مع مستنداتها فى موعدها وينذر بتوقيع العقوبات التى ينص عليها القانون رقم كذا لسنة كذا والقانون كيت لسنة كيت. ومرسل هذا الخطاب يفترض أننى قد تحولت إلى حشرة وارتضيت لنفسى هذا الوضع.

ولهذا فهو يعاملنى على أساسه. فالحشرات كلها تتهرب أو تهرب وتعيش فى الظلام ولابد أننى كذلك فى نظرهم وهذا الخطاب هو الأسلوب الذى يتبعونه لإخراج الحشرات أمثالى من مخابئها ومحاربة تهربها.

ولأننى متمسك بإنسانيتى فأنا ذاهب لأحتج وأعلن رفضى لهذه المعاملة ومعى المستندات التى تدل على أننى أتصرف تصرف إنسان يحترم نفسه ويعرف حقوق وطنه وتقف لى السيارة قرب المأمورية وأقول للإنسانية الكريمة العزيزة التى تتفضل بمعاونتى على التنقل فى مدينة كل ما فيها صعب. الركوب صعب والانتظار صعب والمشى محنة وعذاب.

– اتفضلى أنت الآن فأنا لا أضمن وقتى هذه مصلحة حكومية الداخل فيها ضائع والخارج ممسوخ مسخوط. يسخطونه حشرة أو قردًا أو نسناسا أو أى شىء وهو مهما بذل فلن يخرج إنسانًا محترمًا. وهذا الكلام ليس من عندى بل قال مثله لينين. وكان يعتقد أن موظفى الحكومة الإدرايين أعداء للإنسانية والتقدم وكان يرى أن الروتين او الردرتيب ضد الحضارة. وقد شكا إليه أحد رجاله مرة من موظف روتينى أصيل وقال:

– وماذا تنتظر منى يا سيدى؟ أن أمزق الأوراق واصفع بها وجهه؟ ويقول لينين:

– بلى هذا واجب قومى عليك وأنت تلام على أنك لم تفعله. ونحن إذا لم نفعل ذلك فإن روسيا لن تخرج من حفرة الأفاعى أبدًا. وتنصرف السيارة وأتجه إلى المأمورية وأنا اسأل الله أن ييسر لى أمر عودتى إلى بيتى قطعة واحدة كما يقولون فى الإنجليزية.

واصعد درج المأمورية فى ظلام ومشقة المصعد معطل ونور السلم غير موجود هذا ليس مصادفة بل هو تدبير فهو إدخال لك فى عالم الحشرات. لأن الحشرات لا تركب المصاعد ولا تسير فى النور. وفى الدور الثانى ابحث عن إنسان يقرأ لى إمضاء مرسل الخطاب حتى اتجه إليه ولا أجد فى النهاية إلا صرارا أو صرصارًا جالسًا على كرسى إنه فراش وأريه الخطاب فينظر فى الإمضاء ويقول:

– مدام آمال أدخل هنا وأسأل عنها. لا أتعجب من السهولة التى قرأ بها إمضاء عجزت عن فكه لأن الحشرات يفهم بعضها لغات بعض. وصرار الليل الذى يغنى طول الليل بحك قوائمه الخلفية بعضها ببعض يحكى بصوته الرد رتيب حكاية طويلة لصرارة مثله ولكننا لا نفهم.

وفى القاعة التى قيل لى إن مدام أمال فيها أجد ثلاث أو أربع مدامات محاسبات. اثنتان منهن يخرجن سندوتشات الفول والطعمية فى لفافات أوراق الجرائد وحبر المطابع. ومدام آمال غير موجودة وأتفضل أتلقح على هذا الكرسى إلى أن تأتى وأجلس والمدامات لا يتوقفن عن المضغ والكلام والضحك يا بختهن هؤلاء رضين بالوضع وعشن فيه ومعه ولم تعد لديهن مشاكل. فهن سعيدات لأنهن حشرات فى البيت وفى الطريق والعمل. وبيت الزوجية تحول من زمن بعيد إلى جحر وغرفة النوم مفروشة بالموكيت. وأنت لا تعرف إن كانوا ينامون تحت الموكيت مع الصراصير والنمل أو ما زالوا ينامون فوق السرير لا يهم فالصرصار فوق السرير وتحت السرير وتحت الموكيت.

ويأتى ناس ويذهب ناس وأنا فى مكانى لأن مدام آمال لم تحضر ويبدو أنها لن تأتى وانقضت ساعة وبعض ساعة وأقرأ خطاب الاستدعاء للمرة العاشرة لا تأكد من اليوم الذى حددته لى والساعة وأحاول أن أحتج ولا أحد يسمع وأمضى إلى وكيل المأمورية (البيه المدير غير موجود) والوكيل لا يبدى أى دهشة. لازم عندها عذر.

– إذن ألا تستطيع سيادتكم أن تكلفوا محاسبا ثانيًا بحسابى .

– مش يمكن يا أستاذ هذا عمل مدام آمال وهى التى تعرف عنك كل شىء وملفك من اختصاصها. تستطيع أن تأتى فى يوم أخر.. بسيطة والغائب حجته معاه.

أجل الغائب حجته معه. أما الحاضر فلا يملك أى حجة.

وكما أتيت أيها الصرار الحقير تذهب ويبقى التهديد الذى فى خطاب الاستدعاء مصلتا على رقبتك. وتأتى مرة ثانية وثالثة ورجلك فوق رقبتك. ومدام آمال حجتها معها. هى تستدعيك وتلعن أباخاشك ثم تأخذ اليوم إجازة عارضة ولا حق لك فى أى اعتراض.

وكما أتيت أخرج لا أحد اهتم لدخولى ولا إنسان أحس بخروجى. لقد تحولت الآن إلى حشرة إلى صرار وأنا أسير الآن إلى جانب الحائط وأهبط فى الظلام. الإنسان الذى كان فيك مات ولم يحزن عليه أحد بل لا عزاء هنا. لا عزاء للسيدات ولا للرجال ولا للحشرات.

وأخرج من كهف المأمورية إلى نور الطريق فأحس بالخوف وكل الصراصير تخاف النور وأمضى إلى شارع قصر العينى أبحث عن تاكسى ولكن أحدًا من سائقى التاكسى لا يكترث لى إنهم صراصير لها شوارب على عجلة القيادة وسياراتهم محملة بالصراصير وأخواتها. وبعد انتظار طويل أتوكل على الله وأعول على السير إلى البيت.

لا أمل طبعًا فى ركوب الأتوبيس فهذه مغامرة لا يقدم عليها إلا القردة والنسانيس. يومها تمنيت لو كنت قد مسخت نسناسًا بدل أن أكون صرارًا أو صرصارًا. هذه الحافلات لا يستطيع ركوبها والدخول فيها والخروج منها إلا النسانيس. ونسناس كبير يقود السيارة وهو لا يحفل بأحد. قد يقف وقد لا يقف فذلك لا يهم لأن النسانيس لا تشترط وقوف الحافلة لتركيب أو تنزل وإذا هى انتظرت وقوف الحافلة فإن ذلك يكون إهانة لسياستها

وتصور الإهانة التى يمكن أن تلحقها بنسناس إذا أنت وضعت له سلما ليصعد به على الشجرة.

وعلى قدمك أيها التعيس تسير إلى بيتك ولتمش إلى جانب الحائط ولن يسال عن مصيرك إنسان. وأنا الآن بلا رؤية مستعينا بقرون الاستشعار: وفى الطريق أمر بمجلس الشعب وترتد إلى إنسانيتى وأشعر بفرح وقلبى يهتف. هنا معقل الديمقراطية. هنا حصن العدالة والحرية والمساواة. ألف حمدا لله إن هذا المجلس موجود. ترى أى كوارث كانت تصيبنا لو لم يكن موجودا وأين كنا نكون لو لم يكن فى هذا العرين أسوده.. تحيا الحرية ولا تنازل عن ذرة من مكاسب الديمقراطية.

ويهتف لى خاطر: أليس لك نائب تحت القبة. بلى لى نائب محترم. وأنا شاركت فى انتخابه ومن حقى أن أدخل وأقابله وأعرض عليه موضوعى ليتولى أمر الدفاع عن مصالحى.. وهنا إلى جانب مبنى من عشرة طوابق فيها بالتمام والكمال بالإضافة إلى السكرتاريات الأخرى نحو ٧٠٠ موظف بمعدل رجلين ونصف لكل نائب. والنصف هنا سيدة مثل مدام آمال والرجل باثنين كما هو معروف.

ومادمت على خطوات من حصن العدالة والديمقراطية فلأدخل لأقابل السيد نائب دائرتنا كما يفعلون فى أمريكا عندما يذهبون لمقابلة السناتور أو عضو الكونجرس ولابد أنه سيرحب بى ويسعد بلقائى خاصة وأنا وهو لسنا من العمال أو الفلاحين بل نحن فئات وفئات لا تعنى شيئًا ولكنها على وزن ميكروبات وفطريات وطفيليات وحشرات يعنى. كلنا من العائلة. وهذا يشجعنى و يعطينى حق الدخول والكلام..

ولكن الشاويشية يرفضون دخولى لأننى لست على موعد ولا أحمل بطاقة دخول. حقًا إن اليوم ليس يوم جلسه ولكنه من أيام اللجان واللجان الآن منهمكة فى الدراسة والبحث فى وسائل تخفيف الآلام عن المواطنين.

وأخرج بطاقتي واريها للحرس لأدلهم على أن السيد النائب الذى يمثلنى سيسعد بمجيئ ولكنهم لا يقتنعون وأكتشف أن نائبنا رجل مهم فهو معروف للحرس واحدًا واحدًا وهو بالإضافة إلى ذلك من زعماء المعارضة ولا يدرى أحد فيم يعارض؟ ولكنه زعيم معارضة وبس وليس لك الحق فى ان تعرف أكثر من ذلك. وواحد من الحرس يقول لى إن سيادة العضو لا يأتى إلا نادرًا لأنه رئيس مجلس إدارة أربع شركات والرئيس الأسبق كان يزوره فى بيته وقد حضر زواج بنته واقول لهم إن بنته هذه تلميذتى فى الجامعة وإن والدها سيأخذ على خاطره إذا أنا انصرفت دون أن أراه. ولكن لا فائدة فالنظام هنا صارم والأمن واخد حدوده على الآخر.

ويخطر ببالى أن أمضى إلى سكرتارية سيادته فى المبنى الضخم الملحق بالمجلس فإذا لم استطيع مقابلة واحد من الاثنين اللذين يخصان السيد العضو فلا أقل من أن أقابل نصف الموظف الباقى من السكرتارية. وفى هذه الحالة لابد أن يكون امرأة أو مداما مثل مدام آمال. وكان هذا الخاطر كافيًا لتحطيم آمالى جميعا فهنا كما هو الأمر هناك فى المأمورية لا رحمة ويموت الإنسان منا ولا عزاء لا للسيدات ولا للرجال ولا للحشرات.

□□□

وعندما كنت على وشك الخروج من آدميتى والدخول فى إهاب الصرصارية تداركنى الله برحمته. فقد أقبل أحد أصدقاء واحد من رجال الحرس فى تاكسى. ونزل وتعانقا وعندما كانا على وشك دخول المجلس للجلوس فى البوفيه قلت:

– إذا لم يكن إلى الدخول سبيل فهل تتعطف وتطلب إلى السيد سائق التاكسى أن يوصلنى إلى بيتى؟ ولما كنت قد تحولت إلى نصف صرصار فقد وجد الحارس أن هذا مبرر معقول ليوصى لى التاكسى، وهو من البداية كما فهمت. سائق التاكسى يقول إنه مضطر إلى انتظار السيد صديق رجل

الحرس، وينظر إلىّ الصديق من تحت اللبدة الأنيقة التى تتوج هامته ويرى أننى صرصار فئات محترم. أى جدير بالعطف. فيقول للسائق:

– طيب يا دسوقى.. وصل الحاج لبيته ثم عد إلىّ وينظر إلى الصرصار سائق التاكسى من فوق لتحت. ثم من تحت لفوق ثم يقول:

– أنا كنت أريد أن أنتهز الفرصة واذهب لصلاة الظهر فى جامع الست الطاهرة.فإذا كنت أنت فى هذا الاتجاه أخذتك.

– لا و اللّه.. إننى فى اتجاه آخر..

– آسف.. أنا لا أستطيع أن آخذك.. أنت لست فى طريقى.

وأنسى أننى صرار وأقول:

– يا أخ.. هل سيارة التاكسى تسير فى اتجاه الراكب أو أن الراكب هو الذى لابد أن يسير فى اتجاه سيارة التاكسى؟

ويتعجب الرجل ويقول:

– دا باين عليه غلباوى كمان.. اسمع يا حضرة.. ابحث لك عن سيارة أخرى ودعنى أمضى إلى مسجد السيدة قبل أن يضيع على وقت الظهر.

وانظر إلى حيث كان الحارس وصديقه صاحب اللبدة. فأراهما قد اختفيا داخل المجلس. دون إذن أو تصريح أو موعد. وفى صميم يوم اللجان الفنية يدفع هذا الرجل لأنه صديق أحد الحراس وأبقى أنا فى الشارع، وعندهم حق. فأنا صرار مشاغب وغلباوى ولا مكان هنا لمثلى. هنا لا مكان إلا للحشرات الكاملة المحترمة.

وأعود إلى رحلة العذاب، أدخل فى إهاب الصرار، وأتحسس طريقى بقرون الاستشعار ولا داعى للنظر الدائم إلى الأرض خوف الوقوع فى الحفر أو النقر أو الاختفاء بلا أمل فى فتحات المجارى بلا غطاء. والطريق كله طريق صراصير فعلاً بل إنه جنة صراصير: هنا تراب وطين وحفر ونقر وفتحات مجار تؤدى إلى طرق ترد الروح.

ووصلت إلى باب فندق أمريكى عظيم..ولأول مرة دخلته أحسست أننى اخطو على أرض ليست مصرية. هنا قطعة من أمريكا على أرض مصر كأنها قنصلية أجنبية أو سفارة وترتد إلىّ إنسانيتى فأصلح من هيئتى وأدخل. وأجد نفسى فجأة قد عدت أمشى مشية رجل محترم فهنا عالم ناس والصراصير تموت على الباب. أدخل إلى الكافيتريا أو الكافى – شوب. وأجلس إلى منضدة. وينتابنى شعور بالرغبة فى العودة إلى إنسانيتى الكاملة بأسرع ما أستطيع. ولهذا ينبغى أن أطلب أغلى شىء وأجلس جلسة ملوك، وإلى أن تأتينى المضيفة بما طلبت ذهبت فاغتسلت وأصلحت هندامى وجلست أشرب القهوة باللبن وانظر إلى أنصاف الآلهة أو الكرواسان التى أمامى لأستعين بالنظر إليها على استعادة احترامى لنفسى.

مثل هذا حدث للكاتب الأمريكى جون شتاينبك وقد قصه فى كتابه المتع: رحلات مع تشارلى. وتشارلى هو كلبه. والكتاب وصف لرحلة قام بها الكاتب فى الولايات المتحدة فى صحبة هذا الكلب فى سيارة كبيرة كارافان. فيها يأكلان ويشربان وينامان ويسبح الكاتب فى التأملات. أما الكلب فيتسلى بالتقملات.

وكان الكاتب قد أراد عبور الحدود الأمريكية الكندية ليختصر قطعة من الطريق فرفض رجال الحدود الإذن لتشارلى فى تجاوز الحدود فليس لديه ترخيص بذلك. والناس هناك يعبرون الحدود بجوازات السفر. ولكن الكلاب تحتاج إلى رخصة الكلبية وشهادات التطعيم. وينظر موظف الجمارك فى جواز سفر شتاينبك ويبحث فيه عن أى مبرر يسمح له بممارسة سلطاته على المواطن الذى وقف أمامه. لقد رفض المرور بالنسبة للكلب. وهو الآن يبحث فى جواز السفر عن شىء يسمح له بمعاملة المواطن معاملة أقل من الكلب. ويجد ما يبحث عنه. فقد كان جون شتاينبك قد دون بقلم الرصاص فى آخر صفحة من صفحات جواز السفر رقم تليفون. وينظر موظف الجمرك إلى الأديب ويقول بصلف:

– ألا نعلم ان هذه وثيقة قومية أمريكية رسمية ولا يجوز أن يكتب فيها شيء.

– أعلم ذلك.. ولكنى سأمحوها بالمحاة فهى مكتوبة بالقلم الرصاص.

– وتستعمل المحاة فى وثيقة رسمية. هذه جريمة يعاقب عليها القانون وشيئًا فشيئًا تحول الأديب بين يدى الموظف المتجبر إلى حشرة. وبعد لأى ما أفلت من بين يديه مع كلبه يقول جون شتاينبك بعد أن يصف هذا المشهد: (وهكذا تعرضت لأقسى المهانة لمجرد أننى لقيت أحد رجال الحكومة. من ذلك الحين أنا أحترم كل الشعوب وأكره كل الحكومات والسلطات. وأحسست أننى فى حاجة إلى استعادة احترامى لنفسى فلم أنم ذلك اليوم فى الكارافان. بل توقفت عند أكبر فندق لقيته فى الطريق. وطلبت حجز (سويت) واستحممت ولبست افخر ما عندى من ثياب. وطلبت عشاء عظيمًا لنفسى. ومعه طبق لحم طيب لتشارلى. وهكذا استعدت احترامى لنفسى. وعوضت تشارلى عمالقى من مهانة على يد ضابط الحدود. فعلت شيئًا من هذا عندما جلست فى الكافتيريا.

ومن مكانى فى ذلك المطعم رأيت طرف قبة المتحف المصرى وتردد فى خاطرى سؤال لم يخطر على بالى للمرة الأولى لأنه يثير عندى مشكلة حضارية تتصل بتاريخ شعبنا المصرى والسؤال هنا: إذا كان الذين صنعوا هذه الحضارة العظيمة مصريين فماذا نكون نحن؟ لا يمكن أن نكون نحن وهم شيئًا واحدًا فأما أن يكونوا هم المصريين. ونحن شيء آخر. أو نكون نحن المصريين ويكونون هم شيئًا آخر.

أو يكونون هم المصريين ونكون نحن خلفاءهم الذين تحولنا إلى حشرات؟ أخشى أن يكون ذلك هو الرد الصحيح. لأن التحول من إنسان إلى حشرة يتم عندنا طواعية ودون تكلف.

كأن الأمر اصبح عادة مستحبة أو تقليدًا مرعيًا. وإلا فما الذى يجعل الناس عندنا إذا أرادوا ركوب الحافلة أو الأتوبيس مثلاً تحولوا تلقائيًا إلى

شيء آخر غير الناس؟ فهم يريدون مثلاً ان يدخلوا جميعا دفعة واحدة. وهذا شيء غير إنسانى لأنه يخلو من أى تفكير. واسوأ من ذلك أنهم لا ينتظرون أن يخرج الخارجون ليدخل الداخلون. فتجدهم محشورين مختنقين. ولا يستطيع الداخل منهم أن يدخل أو الخارج أن يخرج. وهذا أمر لا يصدر إلا عن غنم أو حشرات. أما الناس فيقفون صفًا منظمًا. وينتظرون حتى يخرج الخارجون ثم يدخلون بهدوء واحترام نفس. وهذا اسهل بكثير وآمن. فلماذا يهوى المصريون الطريقة الأولى إلا إذا كان فيهم ميل ولهم استعداد للتصرف غير الإنسانى.

وهذا التزاحم والتدافع والاختناق يحدث فى كل مناسبة وفى كل ميدان كأنه هواية جميلة يمارسونها فى شغف. حتى السينما يحبون دخولها بهذه الصورة العجيبة التى تنتج عن التحول التلقائى من إنسان إلى شيء غير إنسان.

وفى بعض البلاد المتخلفة يركب الناس القطار فوق سطحه فى حالة الزحام الشديد. ولكننا هنا فى ذلك البلد العجيب تترك العربة نصف خالية ونصعد إلى القطار. وليس هذا سعيًا وراء التخلص من الأجرة فحسب. فإن الكثيرين ممن يفعلون ذلك مياسير وعندهم مال. وقد نشل النشالون من واحد منهم - فوق سطح القطار - خمسين جنيها كانت معه، ومع ذلك فقد فضل هذا الرجل ان يركب فوق سطح القطار.

وهذه ظاهرة عجيبة ولا علاج لها ولا أمل فى الشفاء منها. وهنا لا مكان للعزاء لا للرجال ولا للسيدات ولا للنسانيس.

(١٠)
كلنا.. فى غرفة الإنعاش*

المريضة مسجاة فى فراشها وعليها سكون النزع، نزفت وكادت دماؤها تجف وأدخلوها غرفة الإنعاش. الغرفة واسعة بلا أول ولا آخر لأن المريضة أيضًا بلا أول ولا آخر.

وفرقة عظيمة من النطاسين يحيطون بالمريضة. بعضهم يحكم وضع الأقنعة على وجهها وبعضهم يضبط كمية غاز الإنعاش. وآخرون يحملون إبرا تتصل بخراطيم. والإبرة تدس فى جسد المريضة والمحاليل تتدفق. وجراحون عظماء تجمعوا ليقوموا بعملية توصيلة أو بأى باس هائلة. فإن الشريان الأعظم فى جسدها انسد فنزف. وكبير الأطباء رجل رفيع القدر رزقه الله بسطة هائلة فى الجسم ووفرة فى الشحم واللحم والعظم والشعر. وهو يدعو الله كثيرًا أن تمر العملية بسلام، وهو يستدعى ناسًا كثيرين بعضهم يحمل أجهزة لحام بالأوكسوجين وبعضهم الآخر ضفادع بشرية. والعملية كلها أصبحت كأنها حلقة من حلقات جيمس بوند ودور الفاتنة أورسولا اندريس يقوم به مراسل للإذاعة أصلع صلعًا عجيبًا يحير الألبان. والطبيب العظيم يستمهل الناس إلى يوم الخميس. وما أدراك ما يوم الخميس. يوم تنهض المريضة المشرفة على الموت وقد بعثت من جديد واستردت عافيتها كلها.. هنا أيها السادة سيتدفق الماء فى بيوتكم عذبا هنيا وستسبحون فى الماء سبحا وتستحمون بكرة وعشيا.

وتنتهى العملية. ويقف النطاس العظيم تحت الأرض بسبعة أمتار ويرسل البشرى إلى (الناس اللى فوق: افتحوا أيها الأعزاء صنابير الماء وحذار من الغرق. نحن هنا تحت الأرض لنخدمكم ونفجر لكم الماء أنهارًا، وهذه الماسورة انتهى أجلها من اثنتى عشرة سنة. نحن نعلم ذلك وما من فى شىء على أرض مصر أو تحتها إلا وعندنا علمه. ولكننا لا نصنع الشىء

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٣ يناير ١٩٨٣م .

إلا بحسب الخطة الدقيقة. فنحن أيها السادة أهل تخطيط، والدليل على ذلك أن عندنا وزير تخطيط ووكيل وزارة تخطيط وخمسين وكيل وزارة مساعد لشئون التخطيط، وإذا كانت هذه الماسورة قد غافلتنا وانفجرت قبل الموعد المحدد فأنتم المسئولون. فأنتم ناس غجر لا تستحقون المواسير. وكان الأوفق لكم أن نترككم كما كنتم ونوزع عليكم البلاليص لتذهب بها نساؤكم إلى شط الترعة يغسلن ثيابكم وأطفالكم ويعدن إليكم بالماء، هذا هو الذى تستحقونه، ولكننا أردنا أن نرقيكم ونصنع لكم المواسير، وهذا هو جزاؤنا! نقف تحت الأرض لنصلح لكم المواسير، ونستدعى لكم الضفادع البشرية لتقوم بلحم المواسير لحما بهلوانيا. وكل هذا لا يعجبكم أذهبوا الآن إلى صنابيركم وافتحوها لتروا العجب الذى صنعناه.. وإلى بيوتنا نذهب ونفتح الصنابير فيخرج منها هواة يعقبه سرسوب ماء ضئيل، ونعود إلى موقع العملية الهائلة فلا نجد الطبيب ولا الضفادع البشرية ولا الوزير ولا الوزير المحافظ أو المحافظ الوزير. لقد انقضى العرض وانفض السامر. والمريضة انتعشت والحمد الله وانتقلت إلى سرير التنشيط والطبيب كتب لها روشتة الشفاء: كوب ماء فى الصباح ونصف كوب فى الظهر وربع كوب فى الليل، ولها أن تتناول ذلك قبل الأكل أو بعد الأكل وتكرر الدواء عشر سنوات وتعود.

وغرفة الإنعاش بكل أدواتها وماكيناتها وأجهزتها وضفادعها البشرية وغير البشرية انتقلت من الجيزة إلى العباسية وانتقل معها الطبيب العظيم وكاميرات التليفزيون، ومنظر جيمس بوند يسر الناظرين، والمذيع العجيب الصلح الشهير بأورسولا أندريس انتقل معهم ليبعد المشاهدين. لقد انتهت حلقة الجيزة وبدأت حلقة العباسية ومسلسل العذاب من ألف حلقة، وفرقة المعداوية انتقلت إلى هنا. فى الجيزة كانوا ينقلون الناس ويخوضون بهم الماء من رصيف إلى رصيف. أما هنا فإنهم يضعون لهم معديات خشبية أو كبارى علوية والناس مقامات، وأين الجيزة من العباسية الغربية فضلا عن الشرقية!

وأهل الجيزة التى أجرينا لها عملية الباى - باس خرجوا من نقرة ووقعوا فى حفرة. فقد قلبنا لهم الأرض وجعلنا عاليها واطيها وفتحنا بطنها وخضنا فيها مع جيمس بوند والضفادع البشرية وبوابير اللحام ووضعنا التوصيلة وخرجنا وقلنا للمقاول: أعد الشوارع إلى كانت عليه. والمقاول قال: حاضر يا أفندم وترك الناس ومضى، والناس يعيشون الآن هناك بين التلال الأوحال وشوارع خلفية بأسرها مازالت بركا يعبرها الناس سباحة وفى القوارب، وشوارع أخرى كلها أوحال، وطوابير سيارات إلى المواسير الجديدة وتحدث كسور وصدوع. والماء الآن تخرج من هنا وهناك.

وفى الطين يلعب الأولاد. وفيه أيضًا يتربى البعوض بعوضة واحدة قد تصيب عشرة مواطنين بداء الفيل،الناس عندنا لم يتعلموا درس التعاون والعمل المشترك بعد، وبدلا من أن يجتمع أهل كل حارة وشارع لينظروا أمر أنفسهم يتجمعون لإقامة مندبة يصرخون فيها يلطمون، وبدلا من إيقاد شمعة فهم يفضلون أن يلعنوا الظلام، وهذا تقليدا نحافظ عليه، ورؤساء الأحياء يجلسون إلى مكاتبهم بين صفين من التليفونات وهم يدرون ماذا يصنعون لأننا لم نتعلم بعد أن إدارة المدن علم واسع، وأول سطر فى هذا العلم أن تكون عندك خريطة بطول الحائط وعرضه عليها كل شىء بالتفصيل لكى ترى بعينيك الحى الذى تعمل فيه وترسم خطة تضع أولويات وتوزع الأولويات. وأنا جلست مع السيد محافظ القاهرة ثلاث ساعات وهو يشرح لى الكبارى التى ينشئونها، وسألته إن كانت لديه خريطة أتتبع عليها ، وسيادته يقول لى: الكوبرى يبدأ من هنا وينتهى هنا فيفك الاختناق هنا، والكوبرى الثانى يبدأ من هناك وينزل هناك ويفك الاختناق هناك، وأنا لا أفهم أين هنا وأين هناك؟ والكلام من ناحية سيادته عذب وبليغ، والجهل من ناحيتى أعذب وأبلغ، وينتهى العرض وبنفض السامر، وأسمع سيادته يقول: إن شبكة الكبارى عجيبة، وأنا لا أفهم لأن عقلى نفسه أصبح شبكة أو غربالاً. وأول ما يحرص عليه الناس

فى الغرب هو الفهم، وآخر ما نحرس نحن هو الفهم، وإذا أصررت على أن تفهم فأنت والله إنسان عجيب وماذا يفعل السيد الوزير المحافظ لكى يفهمك ومخك تخين وعقلك (ضلم) ودمك ثقيل..

أسأل نفسى بعد هذا الدرس الطويل: علام يحافظ محافظ؟. إذا سألته عن المرور قال إن هذا من اختصاص الداخلية، والمياه تتبع وزارة الإسكان والمرافق والصرف الصحى ربما يكون تابعا لوزارة الرى أو الصحة، والتموين وطوابير السجائر والمجمعات تتبع التموين، المدارس تابعة لوزير التربية، وهذا الشارع بما فيه من تابع لحى غرب، ومن فضلك اذهب لرئيس الحى غرب، ورئيس حى غرب، غير موجود فى مكتبه أصلا بالليل أو النهار، وحينما ذهبت لم تجد إلا سكرتيرا إلى مكتب ليس عليه إلا تليفون (معطل) ودفتر تسجيل الشكاوى وجريدة فى يده والباقى تراب. وهات شكوى، ويسجلها لك: خلاص! سنعمل اللازم، ومتى ستعملون هذا اللازم؟ الجواب الدائم: إن شاء الله وأتفضل حضرتك وبلاش وجع قلب.

الشكوى تقليدية نشرتها جريدة الأهرام من مواطن حكى فيها قصة ماسورة بدأت فى الانفجار، فاتصل بالإدارة المختصة بالتليفون وأملى شكواه وشكروه بالتليفون. وعاد يشكو فقالوا له: ألست أنت الذى شكوت من أيام؟ فقد أخذنا علما وسنقوم باللازم وبلاش دوشة.

ازداد تدفق المياه ويأتى رجلان تعيسان وينظران وكان البالوعة مفتوحة ويمضيان وتبدأ المياه فى التدفق! وفى البدرونات وصاحبنا المواطن يتصل بهم يقولون له: فهمنا يا حضرة فهمنا! رجالنا يعملون وقد قدروا الموقف وسنتخذ الإجراءات.

وإلى يومنا هنا لم يحدث شىء المياه تتزايد المسئولون يضيقون بالمواطن الذى يقلق راحتهم، وغطاء البلوعة سرقة أولاد الحرام ولا حياة لمن تنادى.

فإذا كان هذا هكذا فإننا نعود فنسأل: علام يحافظ المحافظ؟

الجواب: المحافظ يحافظ على المحافظ؟

إنه يحافظ على نفسه فى وظيفته.

فهناك ألف إنسان يتربص خلفه ليلطشها ويجرى، ونحن قد نرى. ما أمام المحافظ، ولكننا قطعا لا ندرى ماذا يجرى وراءه.

وأذكر أننى دخلت مرة على عميد سابق لكية دار العلوم وقلت له: أنت رجل علامة فلماذا تؤلف كتبا؟

نظر إلى متعجبا وقال: وهل عندى وقت لتأليف الكتب.

إذن: فماذا تفعل؟

– أدافع عن نفسى من الصباح إلى المساء! لو غفلت عينى لحظة للطشوا الوظيفة، ربما وجدت نفسى دون ثياب. إننى فى حالة دفاع عن النفس، وقتى كله معركة. وفى الليل أكون منهوك القوى ولابد ان أستريح قليلا لكى أواصل الكفاح.

إن غرفة الإنعاش اليوم تعالج العباسية. كل الأطباء والفنيين اليوم هناك لإنقاذها كما انقذوا الجيزة. إنهم يعملون هنا ما عملوه هناك. عملية إنقاذ سريع. توصيلة أو باى – باس ونبش للشوارع وترقيع المواسير أو وضع غيرها، ثم ينفض السامر، الزفة كلها تنتقل إلى حى جديد فيه عملية إنسداد وانفجار وغرق وانقطاع مياه واستغاثات بالاسعاف وبوليس النجدة وفرق الإنقاذ، وكتابة الشكاوى فى الصحف واستجوابات وطلبات إحاطة فى مجلس الشعب، ولم تفعل الحكومة إلا ما فعلته فى الجيزة لأن هذا أقصى ما تستطيع عمله فى النظام الإدارى الحالى وهو نظام غير معقول، لأن المفروض أن يحافظ أى محافظ مسئول عنها مسئولية كاملة، ولا بد أن يكون لكل مدينة رئيس معين أو منتخب ولابد أن يكون مسئولا أمام أهل المدينة أو أهل الحى، إما أن نقسم كل مدينة إلى شرق وغرب وشمال وجنوب. ولكل واحد رئيس، وهذا الرئيس يختارونه من أى موقع: من

الإدارة أو القضاء أو الجيش فكلام لا يصح، وهو ظالم للمدينة. وظالم للموظف نفسه. لقد ظهر رئيس أحد الأحياء فى التليفزيون أمام مذيعة تسأله عما أصاب حى إمبابة من التدهور وما حدث لشوارعه من الدمار، والرجل لا يدرى بماذا يجيب لأنه معين فى هذه الوظيفة من بضعة شهور وأصله لواء فى الجيش، وجوابه عن كل سؤال لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن هذا الأمر حدث قبل تعيينه، وإما حدث بعد تعيينه وهو يبذل جهده لتلافيه. وأنا واثق من أن يبذل جهده، وواثق أيضا من أنه لن يستطيع كثيرا. لأن بدايات الخيوط فى يده ولكن نهاياتها ليست فى يده، وكلما شد خيطا وجد أن نهايته فى يد موظف آخر كبير. قد يكون وزيرا، فماذا يستطيع.

لقد أصدر محافظ القاهرة قرارا من قرابة الشهر بشأن المبانى. وشغل الطريق وما ينبغى عمله لحماية الشوارع والمارين بها. وأظنهم بالفعل أوقعوا بعض الغرامات، ولكنى أرى حول بيتى أربعة مبان تقام وتشغل الطرق ولا تنفذ تعليمات المحافظة. فإذا كانت أوامر المحافظة لا تنفذ فلماذا تصدرها المحافظة؟ والجواب أن المحافظة يمكن أن تصدر هذه الأوامر. ولكن المسئولين عن الرقابة والتنفيذ هم أهل الشوارع نفسها. هؤلاء هم الذين يمسكون بطرف الخيط الآخر، ولابد أن تكون هناك إدارة محلية ترى المخالفة وتسارع بتنفيذ العقوبة أو تلافى الضرر لأن أهل أى شارع هم أول من يرى العيب وهم بالتالى أول من يبادر بالعلاج إذا كانت لهم سلطة، وكل حكومة بالمدينة ينبغى أن تتغير. ومجلس الحى بصورته الحالية مهزلة أو مأساة، وهو لا يمكنه تنفيذ أمر أو توقيع عقوبة أو المحافظة على شارع أو حتى على شجرة. وما دامت هذه حالة فلماذا يبقى؟ لماذا يبقى وهو مثل أصنام الجاهلية لا تسمع ولا ترى ولا تنفع بل تضر.

أتدرى لماذا يبقى مجلس الحى وهو على هذه الصورة؟

أتدرى لماذا وظيفة رئيس الحى كالخشبة التى كانوا يصلبون عليها الناس. يتعذب المعين ونتعذب نحن الذين نرى أحياءنا تتدهور بلا أمل!

يبقى ذلك كله لأننا ناس غير جادين، لأننا جميعا لم نعد نعرف معنى الجدية، والجدية تبدأ بالصدق. الصدق مع النفس قبل الصدق مع الغير، ونحن مع الأسف غير صادقين مع أنفسنا أو مع غيرنا، بل نحن لسنا صادقين مع الله سبحانه وتعالى، وعندما أجد وزيرًا يؤكد أننا سنكتفى ذاتيًا بقمح بلادنا سنة ١٩٨٧م فلا نستورد حبة واحدة فإننى أصمت وأشعر أن نفسى تتقطع وأقول له: ما الذى يرغمك يا سيدى على أن تقول ذلك وأنت تعرف أنه غير صحيح. وأنت تعرف أننا فى سنة ١٩٨٧م سنستورد ضعف ما نستورده من القمح الآن، لماذا تقوله يا سيدى وأنت لست فى حاجة إلى قوله. فإن أحدًا لا يرغمك على قول غير الحق. أما كان أجدر بك أن تقر فى بيتك كريمًا عزيزًا ولا حاجة بك أبدًا إن أن تمنينا لمستحيل؟ وما رأيك يا سيدى فى إننا نعرف أن ذلك لن يكون؟

بل أقول إنه من الممكن أن يكون إذا أردناه حقًا، إذا تخلينا عن هذا الهزل الذى نحن فيه، بل يكفى أن ننفذ القوانين التى لدينا وبعضها يقول إنها جناية أن تتحول الأرض الزراعية إلى أرض مبان أو تباع بالمتر ليجرفها الناس ويقتلوها.. إنها جريمة ولكن العقوبة عليها هزل. العقوبة غرامة ملاليم، من الممكن أن يكون ذلك حقًا يا سيدى فنخرج من أرضنا كل حاجاتنا من القمح لو أننا أبعدنا عن الأرض والزراعة جيوش المنتفعين والجهلة والأنانيين الذين يخربون الأرض ويفسدون الفلاحين ويتولى كل منهم بالوساطة والرشوة أربع وظائف وخمسا. وكل وظيفة لها مرتب ظاهر ودخل باطن، ومصر تدفع له من دمها المرتب والدخل جميعا. من الممكن يا سيدى أن تكتفى مصر بقمحها وذرتها وفولها وأرزها. لو أننا أدرنا الأرض الزراعية إدارة صحيحة سليمة.

والفلاح المصرى ياسيدى يستطيع إذا وجهناه توجيها سليمًا وسيطرنا عليه بقوة القانون أن يخرج لنا من أرضنا أضعاف ما يخرج، ولكننا نعرف إننا لن نستطيع السيطرة عليه بقوة القانون لأننا نحن لا نلتزم بالقانون.

إن الفلاح المصرى الذى لم يعرف فى حياته غلا الجد يتعلم منا الهزل اليوم. وعندما يقف فلاح فى طابور أمام جمعية استهلاكية ليأخذ حصته من الأرز، ثم يرى خفيرا وجنديا يصيحان من جديد: يا زناتى أفندى. البيه الفلانى يقول لك احجز ثلاثين كيس أرز.

– أحجزهم لمين..

– إعمل زى ما بقولك وبلاش غلبة.

كيف نسيطر على الفلاحين إذا كنا نفقد ثقتهم واحترامهم بمثل هذه الأمور.

لقد قرأت فى الصحف أن من بين الشركات التى تخسر شركة أدفينا للأغذية المحفوظة. وأحسست إننى لا أفهم شيئا. لأن هذه الشركات كانت مثالا للإنتاج الجيد الوافر، ونصف إنتاجها فول مدمس، والنصف الآخر خضراوات مجمدة محفوظة. ومعظم صادراتنا توجه للبلاد العربية. والبلاد العربية فيها نحو ٣ ملايين مصرى يستهلكون كل إنتاج هذه الشركة فما الذى حدث؟

الذى حدث قاله من سبع سنوات وكيل هذه الشركة فى الكويت وهو تاجر كويتى محترم جدًا. وهذا الرجل كان لى صديقًا، وأكثر من مرة قال لى: ماذا أعمل فى هذه الشركة وهى لا ترسل لى إرسالية سليمة أبدًا، ولا ترسلها فى وقتها أبدًا. العلب دائمًا سيئة التعبئة سيئة الإغلاق والفول نفسه غير منقى، وغير خال من السوس. إننى أطلب إرسالية الفول المدمس من الصين فتصلنى قبل الموعد المحدد، ولا أجد فيها علبة واحدة غير سليمة ولا سوسة ولا حصوة، والإرسالية ألف صندوق فتجيننى معها عشرة صناديق هدية.

ويا ليتنا نعترف بالفشل، بل نغطيه بالأكاذيب لكى يظل مدير الشركة فى منصبه لأنه يا سيدى من الحزب بل هو رئيس اللجنة الإقليمية

للحزب، ونحن نكذب لكيلا نوقع غرامة قرش واحد على عامل، وأعجب من ذلك هو أن مثل هذه الشركة الخاسرة توزع أرباحًا!

لقد تعودت مع قرائى الصراحة والإخلاص للحق. وهذا الإخلاص للحق يدعونى إلى أن أقول بأن معظم قوانين العمالة فى بلادنا ضارة بالوطن والعمال أنفسهم. وما أظن أن هناك عاملاً يحترم نفسه يرضى بما وصلنا إليه من أن العامل لم يعد عاملاً يكسب رزقه بعرق جبينه. بل أصبح مستحقا فى أوقاف، أصبح تنبلا فى تكية. والعمال الجادون الذين يحترمون أنفسهم يؤيدوننى فى هذا الكلام.

وإذا كان هذا هكذا. فلماذا لا تغير هذه القوانين. إن مكاتب العمال فى لم تعد مكاسب لأنها قضت على العامل. الجاد المخلص، والطبقة الكادحة أصبحت أسطورة والعمال أصبحوا يفسدون الآلة التى يعملون عليها ويطالبوننا بأتعاب الإفساد.

□□□

هل من الجدية فى شىء أن تنشر الصحف تصريحًا لمسئول كبير يقول فيه: إن لدينا ماء جوفيا يكفى لرى ستة ملايين فدان! هذه بهلوانية ياناس وليست إدارة مصالح الوطن.

إن أحدًا لا يطالب المسئولين أن يصيروا حواة. من المستحيل أن نطلب من مسئول كبير أن يخرج لنا من جيبه أرنبا أو حمامة، فلماذا يتبرع هو ويخرج من جيبه ماء يكفى لرى ستة ملايين فدان.

أتعرفون يا ناس ما هى الجدية؟

إن بلاد الغرب تستهلك اليوم نصف كمية البترول التى كانت تستهلكها من خمس سنوات، أرادت بعض البلاد المنتجة للنفط أن تتلاعب وتنتظر وتلعب ألاعيب بهلوانية فشمر أهل الغرب عن ساعد الجد وأحكموا استهلاكهم من البترول وابتكروا أنواعا من الوقود، وعاد إلى الفحم من استطاع ذلك منهم.

ومن الفكاهات المريرة التى أطلقت فى الغرب من أسبوعين إن دولة من دول الأوبك هددت برفع سعر بترولها إلى ٣٥ دولارا للبرميل. فأعلنت شركة أمريكية أنها مستعدة لأن تبيع لأى بلد من بلاد الأوبك البترول بسعر ٣٢ دولارا للبرميل! أتريد أن تعرف ما هو عدم الجدية؟

هو إننا فى مصر نستهلك اليوم كل ما ننتجه من النفط وربما كنا نستورد. لقد زاد استهلاكنا من البترول إلى الضعف فى عامين. هذا هو الهزل لا إدارة ولا ضبط ولا احترام للناس. والناس يشعرون أن المسئول الكبير يهزل فلا ينتظر منهم جدية فى شىء.

□□□

هل تريدون قاعدة أخرى من قواعد الجدية بعد الصدق؟ هو أن يكون كل شىء نعمله مطابقا لمعناه ومحتواه. فلا تكون لدينا عشر كليات آداب تخرج كل سنة حوالى ٥٠٠٠ خريج ويتقدم منهم ١٠٠٠ لاختبار فى القراءة والترجمة اليسيرة لامتحان يعقده التليفزيون فلا ينجح إلا أقل من ١٠!

الهزل هو أن يكون فى بلادنا نحو ١٥ قسم لغة عربية ثم لا تجد من خريجي هذه الأقسام جميعا عشرين فحسب يتقنون اللغة العربية، وكيف والله يتقنونها إذا كانت معرفة الذين يعلمونهم باللغة العربية فضيحة. وليس هذا كلامى بل هو كلام أستاذ جليل فى كلية دار العلوم وهو صادق فيما يقول:

تحسبوننى أقول نكته عندما أقول إن مصر كلها فى غرفة الإنعاش..

لا والله يا سادة إنه الجد بعينه واذكروا قول الله تعالى فى سورة الطارق. الآية ١١.

﴿والسماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل وما هو بالهزل﴾

□□□

أتعرفون لماذا أقول هذا الكلام؟

لأنى لم أفقد الثقة فى وطنى بعد

أقوله لأننى أعرف أننا لسنا بعاجزين وأننا نستطيع الجد إذا أردناه. وخذوا العبر من الجيش المصرى حفظه الله ورعاه.

هناك جد وحزم وضبط وربط.

هناك قوانين تثيب وأخرى تعاقب وثالثة تردع، وهذه القوانين كلها تنفذ، ولهذا فإن الجيش منتظم وحازم وقوى. ولهذا كسب نصر أكتوبر. لنأخذ العبرة مما بين أيدينا. ودعنا من الهزل.

وكل الشركات التى تعمل فى مصر تستطيع أن تكسب إذا نحن أدرناها بحزم. إذا نحن فسرنا عبارة المكاسب الاشتراكية تفسيرها الصحيح وطبقناها تطبيقها الصحيح.

وصدق أو لا تصدق أن مساحة سنجابور لا تزيد على مساحة محافظة مصرية واحدة ولكنها تنتج وتكسب. ونحن نأكل بالدين ونخسر.. ياخسارة يا ولاد يا ألف خسارة.